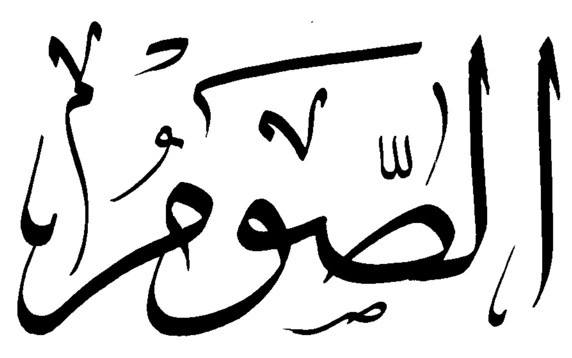
الشيخ عبد الرحمن الدوسري



مدرسة تربي الروح وتقوي الإرادة

الطبعة الأولى
١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م

يطلب من مكتبة الرشد ـ الرياض ـ طريق الحجاز

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم الأستاذ سعيد محمود
بكالوريوس اللغة العربية وآدابها
دبلوم الدراسات العليا في التربية

الحمد لله حمد الشاكرين : والصلاة والسلام على نبينا محمد الهادي الأمين المبعوث رحمة للعالمين.. وبعد.

عندما وضع أمامي الجزء الثاني من كتاب الشيخ عبد الرحمن الدوسري الكبير (صفوة الآثار والمفاهيم) لإعادة النظر فيه قبل طبعه مرة ثانية، رأيت فيه عدة موضوعات يمكن أن تفصل وتعرض مستقلة ككتاب، وكلام الشيخ عن الصوم هو واحد من تلك الموضوعات التي بذل فيها جهده ووقته خدمة لله ودينه وعباده المؤمنين. فقد تناول الموضوع ــ رحمه الله ــ بطريقة جديدة تنطلق من الظروف التي يعيشها المسلم في وقتنا الحاضر (سفره وسكنه وعمله، والمثيرات والرغبات التي وضعت أمامه وكادت أن تسد عليه الطريق) فكانت رؤيته جريئة واعية شاملة. ولهذا كله رأيت أن يعرض هذا البحث من صفوة الآثار في كتاب مستقل لما يحمله من فائدة قد لا يجدها القارئ في الكتب الكثيرة التي وضعت في الصوم كفرض وعبادة. فجمعت الموضوع إلى بعضه وخرجت الآيات الواردة فيه، وتتبعت الأخطاء المطبعية فأعدتها للأصل، ثم جعلت لكل بحث عنواناً يناسبه حتى يبدو الموضوع ككل كتاباً متكاملاً.. وأنا إذ أقوم بهذا العمل لا فضل لي

فيه فالكلام كلام الشيخ والجهد جهده، وعملي لا يعدو أن يكون من باب التنسيق للطباعة ليس إلاّ.

والشيخ الدوسري ــ رحمه الله ــ استفاد ولأبعد حد من الآيات والأحاديث الكثيرة التي تعالج موضوعه، ووفق في إبراز الصوم كمدرسة عليا تقوّي الإرادة والعزيمة، وتغرس في أبنائها الصدق والإخلاص والدأب، وتنير في أرواحهم معاني الأخوة والمحبة والمساواة والتضامن والتكافل والتعاضد..، وفطن كذلك لإقامة علاقة جميلة رائعة بين رمضان والقرآن، وبين رمضان والدعاء، فرأى أن الله سبحانه وتعالى أنزل كتابه الكريم في شهره الكريم تعظيماً لهذا الشهر وتبريكاً، وتوقيتاً مناسباً يقبل المسلمون أثناءه على القرآن إقبالاً فاعلاً، داعمين الصيام بالقيام، والقيام بتلاوة القرآن.. والقرآن يشحذ النفوس ويقوي العزائم ويترك الإنسان أكثر تعلقاً بخالقه وأكثر حرصاً على تنفيذ أوامره واجتناب نواهيه، وبالتالي فإنه يجعل صوم الصائم مرغباً بفعل الخير ومنفراً من فعل الشر مصداقاً لقوله تبارك وتعالى (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينٰت من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون). فالهدى يجلب التقوى، وفي التقوى حسن الطاعة وطيب المعاملة، والأنس، والرفق، والصدق والانضباط، وحب الخير لكل أخ مسلم، ودفع الظلم عنه حباً لله ورسوله، وصيانة للسان عن الفحش والزور والكذب والافتراء والخوض في أعراض المسلمين (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه).

ورمضان المبارك فرصة طيبة كي يسترجع فيه المسلم أعماله كاملة خلال سنة مرت فيتأملها بعين الناقد المصلح، فيعتدل ويقوم نفسه ويصلح من شأنه ليقبل على الله إقبال محب مطيع، ويكون إلى جانب إخوانه

مساعداً، مسامحاً، متعاوناً.. يقيل عثرة المتعثر، ويمسح جرح المكلوم. وبهذا تصفو نفسه وتسمو روحه، ويكون أكثر قرباً من الله.. في موقف تستجاب فيه دعوته، وتزداد فرصته في العمل الصالح النافع.

رحم الله شيخنا الدوسري رحمة واسعة، وجزاه عن المسلمين أفضل ما يجازى به العبد الصالح العامل، ونفعنا بكل علم يقرب إليه ويفقه في دينه لنكون من عباده الشاكرين (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه).



معنى الصـــوم

قال تعالى : (يَـأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ[١٨٣] أَيَّامًا مَّعْدُودَات فَمَن كَانَ مِنكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ [١٨٤]) من سورة البقرة.

الصوم فى اللغة معناه الإمساك والكف عن الشيء ، ومن معناه اللغوى قول مريم عليها السلام (إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً).(١)

وكقول امرؤ القيس :

(كأن الثريا علقت فى مصامها ...)   أى كإنها ثابتة لا تنتقل

وقوله أيضاً :

فدعها وسل النفس عنها بجسرة   ذمول إذا صام النهار وهجرا

أى أبطأت الشمس عن الانتقال والسير فى الظهيرة،فصارت فى إبطائها كالممسكة . وكقولة الشاعر :

شر الدلاء الولغة الملازمه   والبكرات شرهن الصائمه

يعنى التى لا تدور .

والاستشهاد على معنى الصوم اللغوى يطول ذكره ، ومعناه الشرعى :

---

(١) سورة مريم، آية (٢٦).

الإمساك عن الأكل والشرب والتمتع الجنسى من الفجر إلى المغرب حسب تحديد الشارع . وقد كتب الله الصيام فرضاً محتوماً فى دينه القويم على المسلمين فى قديم الزمان من الأمم السالفة ، لأن الدين الذى جاءت به جميع رسل الله إلى أقوامهم هو الإسلام ، فلذا قال تعالى : (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم) فليس إيجابه مختصاً بهذه الأمة بل هو فريضة دينية قديمة ، وذلك لأهمية الصوم وسمو مكانته وعظيم منافعه الجسمية والروحية ، فهو من أقوى العبادات على تهذيب النفوس والسمو بالأرواح إذ فيه إعداد للنفوس ، وتهيئة لها على تقوى الله ومراقبته ، وفيه تربية لقوة الإرادة على كبح جماح الشهوات ، وأنانية النفوس ، ليقوى صاحبها على ترك مايضره من مألوفاته أكلا أو شرباً أو متاعاً، فيكون قوى الإرادة في الصبر على ما حرمه الله وما يضره فى بدنه أو ماله ، وقوى الإرادة فى الإقدام على امتثال أوامر الله التى من أعظمها حمل الرسالة المحمدية والدفع بها إلى الأمام ، ساخراً بما أمامه من كل مشقة وصعوبة .

فنى الصوم خير تربية للإنسان على القوة العامة فى كل شىء ، وعلى فضائل الصراحة فى القول والإخلاص فى العمل ، وعلى الجد والحزم ورباطة الجأش بقوة العزم ، فهو يعلم الناس كيف يترفعون عن مظاهر الحيوانية التى غاية همها الأكل والشرب وإشباع الغريزة . يعلمهم كيف يسمون بأنفسهم إلى مستوى تغبطهم الملائكة عليه .

نعم يغبطهم عليه الذين غذاء أرواحهم ذكر الله وعبادته وحسن مراقبته ، لأنه يربى فى المسلمين ملكة الصبر ، وقوة معنوية على قهر النفس ويعودهم احتمال الشدائد ، والجلد أمام العقبات ومصاعب الأحداث ومتاعب الحياة ومكاره النفوس ، فيصفى نفوسهم من علائق الشهوات وأدرانها ، ويخلصها من الانهماك فى متع الدنيا وزخارفها حتى لاتجعلها غاية قصدها وأكبر همها فتقصر التعليق بها وعليها والعياذ بالله .

ففى هذه التربية محو لسلطان المادة وطغيانها على النفوس حتى لايشتد سلطانها على سلوك البشر المسلم ، بل يكون السلطان الغالب فى حياته للروح التى تزكيه بالفضائل الطيبة والمعنويات السامية التى يحصل بها الإخاء الإنسانى والمحبة الروحية ويتحقق بها التعاون بين الأفراد والجماعات، تلك الأخلاق السامية الناتجة من التشريعات الإسلامية التي فقدتها الدول المادية فإذا هى فى أمر مريج فى جميع شئون حياتها ، لا تقدر على التخلص منه مادامت بعيدة عن تطبيق دين الله الصحيح مهما تلمست للخلاص فى غيره .

والصوم أيضاً ينمى فى النفوس رعاية الأمانة والإخلاص فى العمل ، ولا يراعى فيه غير وجه الله . وهذه فضيلة عظمى تقضى على رذائل المداهنة والرياء والنفاق .

والصوم يمثل ضرباً من ضروب الصبر الذى هو الثبات فى القيام بالواجب فى كل شأن من شؤون الحياة. وفى الانطباع به تحقيق للشخصية الحسية والمعنوية ، إذ لايكفى تحقيق الوجود الحسى دون المعنوى أبداً ، إذ لايحظى أى مجتمع بالوجود الكامل ، بل لايستحق عنوان الوجود والخلود إلا إذا نال نصيبه من الشخصيتين الحسية والمعنوية . فحينئذ يتحقق له الكيان المرموق المرهوب . أما إذا فقد أى مجتمع شخصيته المعنوية كان فاقداً لوجوده المعنوى ، وكان وجوده الحسى السليب من المعنوية ظلا لغيره يتحرك بحركته إذا تحرك ، ويسكن بسكونه إذا سكن ، ولا ينطق إلا حيث يوعز إليه ، وكان معطل المواهب الفكرية ، لايفكر إلا بتفكير غيره .

ولهذا كان الدين الحنيف القويم من ضروريات الإنسان ، لأن القصد من الدين تزكية النفس ، وتطهير القلب ، واستشعار عظمة الله ، والخوف من سخطه وعقابه ، والرجاء فى جنابه من حسن المثوبة الذى ينمى فيه روح

الطاعة والامتثال وإحلال الخير والصلاح فى الأرض على أساس رباط قوى متين يربط الإنسان بخالقه العليم الخبير الذى يعلم سره ونجواه .

وبما أن المؤمنين عرضة — كغيرهم بمقتضى سنة الله الكونية في خلقه — للكوارث والمحن ، ومكلفون بمقتضى حكمه الشرعى بحمل الرسالة الدينية ، وتحمل جميع مايلاقيهم فى سبيلها برحابة صدر وقوة ثبات ، ومطالبون من الله أيضاً بالجهاد للدفع بالمد الإسلامى إلى الأمام . فلا بد لهم من تحقيق الجهاد الداخلى الذى لا يتحقق إلا بمجاهدة النفس وتصبيرها على طاعة الله وعلى أقداره ، وتصبيرها على الوقوف عند حدود الله فى كل ورد وصدر ، جعل الله التشريعات الإسلامية تربية للروح والجسد ، وتزكية للضمير ، ليستطيع التغلب على نفسه وشيطانه فى الجهاد الداخلى ، فيتأهل للجهاد الخارجى ، لأن الإنسان إذا ترك على طباعه من تنازع الرغبات فى نفسه وما أودع فيها من إيثار الراحة واللذة العاجلة ، ولم يشد أزره بإرشاد إلهى وتعاليم روحية يؤمن بها ، ويثق بحسن نتائجها ، ويطمئن إليها ، عجز كاهله عن حمل أعباء الحياة ، وخارت قواه ، وذاب احتماله ، ففقد كل استعداد لتحصيل الشخصية المعنوية ، فانحرف عن المبدأ الأصيل الذى اختاره الله له من الخلافة فى الأرض وحمل الأمانة التى أبت عن حملها السموات والأرض والجبال . فلهذا اختار الله لهم من شرائع دينه ما يصقل أرواحهم ، ويهذب نفوسهم ، ويمحص قلوبهم ، وينمى فيهم القوة المعنوية على الصلاح والإصلاح .

ومن تدبر فلسفة أركان الإسلام وشعب الإيمان وجدها كلها هادفة إلى ذلك ، فالنطق بالشهادتين يجعل الصادق به متعلقاً بالله ، متألهاً له دون ماسواه ، مخلصاً فى محبة الله ، لايحب إلا ما يحبه الله ، ولا يوالى أحداً إلا على مرضاة الله ، يكفر بكل طاغوت منازع لسلطان الله فى الأرض بالتسلط والتشريع ، ويغضب لله أشد من غضبه لنفسه وحرمه ومقدساته ، ويعادى في الله أقرب قريب دون مبالاة أمام حب الله ورسوله.

والصلاة فيها معارج روحية يحصل بها للمسلم رحلات إلهية أوجبها الله عليه فى كل يوم وليلة ، وجعلها فيما وراء ذلك نافلة خير موضوع يقوم به المسلم كلما أراد أن يخلص فيها من دنياه ويروح قلبه ويستجم بدنه ، يفرغ ويفزع فيها إلى ربه بالتكبير والمناجاة ، طالباً معونته وهدايته ، ملقياً فيها بنفسه فى كفالة ربه الرحمن الرحيم ، يتمثل بها عظمة يصغر أمامها كل عظيم فى هذا الكون .

وقد كان المصطفى صلى الله عليه وسلم يفزع إلى الصلاة كلما حزبه أمر ويقول : « يابلال أرحنا بالصلاة » . كما يقول : « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » . وقد قال سبحانه وتعالى : (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة)[1]. فهي من أعظم الأركان وأقدم العبادات في الأكوان ، إذ فيها يتجه الإنسان بكامل خضوعه نحو الله عظيم الجلال والجناب ، يناجى هذا الجلال بقوله (الله أكبر) ليحصل فى الإنسان قوة الوجود كله وقيمته عندئذ أن شيئاً واحداً فى الوجود كله له العظمة والجلال ، وما عداه تضمحل قيمته وتتضاءل . فإذا ثبتت هذه القيمة فى نفس المصلى كانت نفسه نفساً مطمئنة ، لأنه يستبعد من المصلى بعد أن يدرك هذه القيمة أن تميل نفسه وتخرجه عن تحصيل شىء فى الوجود غير الله .

وليست النفس الأمارة بالسوء إلا تلك النفس التى تخضع الإنسان لغير الله فى الوجود ، وهى لا تفترق عندئذ عن الشيطان فى الهدف والغاية .

فالصلاة عبادة قصد بها أن يكون المسلم صاحب اتجاه واحد فى جميع مراحل حياته وما ينتابه فيها من أحوال ، وعندئذ تتحقق وحدة الإنسان وبروز شخصيته وقوته المعنوية ، ويرتفع عن التردد بين النفس الأمارة

---

(١) سورة البقرة، آية (١٥٣).

والنفس المطمئنة ، إذ تكون نفس المصلى الصادق الخاشع نفساً مطمئنة على الدوام .

أما الزكاة فإن المزكى يسعى بها قرباناً إلى الله نحو اتجاه واحد فى سلوكه ، وهو اتجاه المعطى المانح عن تعبد وسخاء ، وبذلك يكبت الاتجاه الآخر فى الإنسان ، وهو اتجاه الاستيلاء والشح والطمع والجشع ، وبذلك تكون الزكاة عبادة مالية وإنسانية لتحقيق وحدة الإنسان بدلا من توزيعه وتردده بين الصفات الأخرى ، وبدلا من أن يتردى فى الاتجاه الآخر الذى يحرمه السمو ، ويبعده عن التشبه بصفات الله في منحة وجوده وعطائه وكرمه .

وفى عبادة الصوم امتثال لأمر الله وإقرار عملى بوجوده وبقيمته العظمى فى الوجود ، وفى هذه العبادة الشريفة أكثر من المنح والعطاء ، لأن فيها كبت للذات الإنسان ، وحرمان له من هذه اللذات طواعية وامتثالا لأمر الله . ففى الصوم خطوة أخرى فى طريقة توحيد الإنسان وسعيه نحو وحدة ذاته فى تحصيله النفس المطمئنة التى لا تخضع لما سوى الله وتحقق فى هذه العبادة كمال الخضوع ، والالتزام لحدود الله : فالصوم مقارب للصلاة فى النفع ، فالصلاة تبعث صاحبها على مراقبة الله حتى تطبعه بذلك ، والصيام كذلك ، فبتحقيقهما يكون المسلم فى حذر دائم من مخالفة أحكام الله أو التقصير فى حدوده وشرعه ، وبذلك يكمل للروح تهذيبها وللنفس صلاحها ، وللعقل إدراكه الصحيح ، فيكون المجتمع سعيداً راقياً بأفراده الذين هم من هذا النوع لأن أصل جميع المحامد بضبط النفس ولذا جاء فى ختام هذه الآية قوله (لعلكم تتقون) ، فإن فى ذلك تقريراً للحكمة الجامعة لخيرى الدنيا والآخرة على اختلاف أنواعهما وهى (التقوى) ، لأنها هى التى تنشأ من الإيمان بالغيب الذى يستيقظ به الضمير ، وهى التى تحرس القلوب من إفساد الصوم بالمعصية ، وتشحذ الذهن وتدفعه إلى التفكير فى الحكم البالغة من تشريعات العليم الحكيم جل جلاله ، فيلتزمها المسلم ، ويرعاها حق

رعايتها ، فإنه إن لم يكن البشر واعين لحكمة التشريع الإلهى وثمراته فى الدنيا قبل الآخرة ، فإنهم لن يطبقوه على تمامه أو على وجهه الصحيح ، فالله سبحانه وتعالى افتتح آيات الصيام واختتمها بما يناسبها من حكمة التشريع وما يناسب حال أمة الخلافة والرسالة فى الأرض ، فإن فرض الصوم أمر طبيعى بديهى الوقوع على أمة حملها الله الأمانة العظيمة ، أمانة التكاليف ، وحمل الرسالة المستلزمة للجهاد ، لأن الصوم هو مجال تحقيق الشخصية الإنسانية المعنوية وتقرير قوة إرادتها ، واستعلائها على المطالب الجسدية ، وتحمل ثقل الفطام عنها بقوة عزم وصحة وعى ، كما فيه إعداد لتحقيق الجهاد الداخلى المتقدم ذكره .

ولهذا كان خطاب الله بفرضية الصيام للمؤمنين الذين هم أهل لما ذكرناه حيث قال : (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) . وفى هذه الآية فوائد عظيمة :

(أحدهما) أن الله نادانا بنداء الكرامة لابنداء العلامة ، وحق لمن نودى بنداء كريم ولقب شريف أن ينفتح قلبه لمن ناداه ويعتز ويلتذ ويفرح بذلك ، خصوصاً إذا كان المنادى كبيراً أو عظيماً . فكيف إذا كان المنادى مالك الملك، ذا الجلال والإكرام، رب العزة والعرش المجيد ، والبطش الشديد ؟ فنداؤه لنا بنداء الكرامة ولقب التشريف يوجب علينا شرعاً وعقلا حسن الالتفات وصدق الانقياد والتشرف بتنفيذ مطلبه .

(ثانيها) أن هذا اللقب يقتضى حصر التلقى من الله فقط ، وحسن التصرف فى نعمه ، والقيام بواجب ذكره وشكره ، وتنفيذ أحكامه ، فالذين آمنوا بالله ، وأشربوا حبه فى قلوبهم ، واطمأنوا لما نزل من الحق ، هم الذين يقدسون تشريعات ربهم ويمتثلونها ، رغبة فى ثوابه ، وخوفاً من عقابه وبطشه . ولذلك اختصهم بهذا النداء لما فيه من قابلية الطاعة والتنفيذ .

(ثالثها) أن المؤمنين حقاً هم جنود الله من البشر وحزبه الحامل لرسالته، الحافظ لحدوده ، وهم الذين يفرض عليهم الجهاد لإعلاء كلمته ، وقمع المفترى عليه ، والقيام بتقرير منهجه فى الأرض والقوامة به على البشرية ، وبحسن قيامهم بذلك يمتد أمد الرسالة المحمدية التى يحصل بها قيام الحجة لله على الناس مدى الدهر ، وبها يكونون شهداء على الناس إذا حققوا خيريتهم التي هيأهم الله لها ، فلذلك فرض عليهم الصوم لتزكية لنفوسهم وتمحيص إيمانهم وتقوية إرادتهم على حمل أعباء الرسالة ، إذ فى الصيام مجال عظيم لتقوية الإرادة العازمة الجازمة الصارمة . ومجال آخر هو اتصال الصائم بربه اتصال طاعة وانقياد يتحقق فيه كمال القيام بالأمان والإخلاص ، كما سنفصل ذلك مع مزيد من الفوائد إن شاء الله :

(رابعها) تشبيه الفرضية بالفرضية من الله سبحانه فى إخباره أنه كتب الصيام علينا كما كتبه على الذين من قبلنا ، ففى هــذا إشادة بأهميته وتوطين لنفوس المؤمنين على ثقل تلك العبادة التى فيها حبس النفس عن شهواتها ومألوفاتها وتحمل المشقة فى ترك ذلك . وقد قال بعض الحكماء : (إن التكاليف إذا عمت سهلت) .

(خامسها) قوله تعالى : (لعلكم تتقون) فيه تعليل لفرضية الصيام ببيان فائدته الكبرى وحكمته التى يتفرع عنها كل خير وبركة ، وهو أنه يعد نفس الصائم لتقوى الله بترك شهواته الطبيعية الميسورة التناول عليه والعزيزة إليه بحيث لولا تقوى الله وحسن مراقبته لما تركها ، ولو كان تركها بأنفس الأثمان ، ولكن تقوى الله تعالى جعلته يرعى أمانة الله فى حال خفائه عن الناس واختلائه بنفسه . وبذلك تتقوى إرادته على ترك ماحرمه الله أو كرهه ، وعلى اجتناب مايضره من مألوفاته التى ابتلى بها ، وعلى الصبر فى البأساء والضراء وحين اشتداد الحرب كما سنوضحه ، وهذا معنى دلالة (لعل)

الدالة على الترجى ، لأن الرجاء لايكون إلا فيما وقعت أسبابه ، وموضعه فى هذه الآية المخاطبون بها إذا امتثلوا بصدق عزيمة وحسن نية واستقبال فمن لم يكن كذلك لاترجى فيه هذه الملكة للتقوى .

وقد كان الوثنيون يصومون إذا تلوثوا بالمعاصى لتسكين غضب آلهتهم فيما يزعمون ، أو لإرضائها واستمالتها لقضاء حوائجهم ، لاعتقادهم الفاسد بأن إرضاءهم والتزلف إليهم يكون بتعذيب النفس وحبسها عن شهواتها وقتاً ما . فلما كان هذا شائعاً فى مجتمعات الضلال والوثنية جاء القرآن يعلمنا أن الصوم ونحوه من العبادات ليس لتعذيب النفس ولا لشىء من هذه الخرافات ، وإنما هو لإعداد المؤمنين للسعادة والتقوى وتربيتهم على تحمل الشدائد بحبس النفس على المكروه والأخذ بجميع وسائل الوقاية التى يحصلون بها على الأمن الصحيح والعيشة الراضية السليمة فى الدنيا والآخرة .

فأول آية فى حكم الصيام تقرر فيها الحكمة الجامعة للخير فى الدارين على اختلاف أنواعه ، وهي التقوى ، لأنها هي التي تنشأ من الإيمان بالغيب الذى يستيقظ به الضمير ، وهى التى تحرس القلوب من إفساد الصوم بالمعصية وتشحذ الذهن وتدفعه إلى التفكر فى الحكم البالغة من تشريعات العليم الحكيم جل جلاله ، فيلتزم المسلم ويرعاها حق رعايتها ، فإنه إن لم يكن البشر واعين لحكمة التشريع الإلهى وثمراته فى الدنيا قبل الآخرة ، فإنهم لايطبقونه على تمامه أو على وجهه الصحيح .

وسر ختام آية الصيام بالتقوى أن إعداد نفوس الصائمين لتقوى الله يظهر من وجوه كثيرة أعظمها شأناً وأظهرها أثراً وأعلاها شرفاً أن الصيام أمره موكول إلى نفس الصائم وضميره ، لا رقيب عليه فيه إلا الله ، فهو سر بين العبد وربه لايطلع عليه أحد سواه ، لأنه يستطيع أن يفطر سراً مختفياً عن

أقرب قريب ، ولكنه لتقوى الله يلتزم الأمانة فى حفظ الصيام مهما سنح له مايشتهى أو يغرى . فمواصلة ذلك شهراً كاملا عن تقوى ومراقبة وحياء من الله يصاحبه فى هذه المدة ، يحصل بها نزاهة الضمير ، وضبط النفس ، وإعدادها لما يؤهلها للخير ، وتحمل الأذى فى سبيل الله ، ويقوى عزيمتها فى كل إقدام وإحجام ، ويتقوى أيضاً بصومه الصحيح على كبح جماح شهوته ونزوات نفسه .

الصوم تربية ومدرسة

فالصيام من أعظم العون على محاربة الهوى وقمع الشهوات وتزكية النفس وإيقافها عند حدود الله ، فيحبس لسانه عن اللغو والسباب والانطلاق فى أعراض الناس ، والسعى بينهم بالغيبة والنميمة المفسدة . كما يردعه عن الغش والخداع والتطفيف والمكر وارتكاب الفواحش ، وأخذ الربا أو الرشا ، وأكل أموال الناس بالباطل بأى نوع من الاحتيال . ويجعل المسلم يسارع فى فعل الخيرات من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة على وجهها الصحيح وجهاتها المشروعة ، ويجتهد فى بذل الصدقات وفعل المشاريع النافعة ، ويحرص على تحصيل لقمة العيش من الوجه الحلال ، ويحذر من اقتراف الإثم والفواحش ، فضلا عن الاسترسال بها . وإذا نسى أو غلبته نفسه على فعل معصية ذكر الله سريعاً فأناب إليه واستغفر وتاب مما أصاب ، لما غرس فيه صوم هذا الشهر المبارك من مراقبة الله وخشيته ، كما قال الله تعالى : (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون).[1]

ولذا وجب على الصائم أن يتحفظ أكثر ما ينبغى أن يتحفظ ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من لم يدع قول الزور والعمل به

---

(١) سورة الأعراف، آية (٢٠١).

فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه) . فالصيام ياعباد الله تهذيب لاتعذيب ، فإذا لم يؤت ثمرته النافعة فليس النقص منه إنما النقص من سوء تصرف الصائم وعدم صحة قلبه وطهارة ضميره وعدم حسن تفكيره .

ومن هنا وجب أن يكون الصوم عن إيمان واحتساب وضبط وتعظيم لشعائر الله ، لا عن تقليد ومسايرة ، كصوم من يصوم بتوجع وتحسر ، ويقتل أوقاته بالنوم والبطالة ، وهو فى الحقيقة قاتل لنفسه قتلا معنوياً ، ويتمنى سرعة انقضاء رمضان كأنه ليس محسوباً من عمره أو ليس فيه زيادة من أجره والعياذ بالله .

فأين حاله من حال النبي صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح الذين يصومون أياماً من الأسبوع أو أياماً من كل شهر تطوعاً لله ، يهذبون بها أنفسهم ، ويتدربون فيها على حمل أعباء الرسالة وتحقيق الحياة الطيبة ؟

فأين هو من الاقتداء بهم واللحوق بركبهم الشريف الذى طهر مشارق الأرض ومغاربها من الكفر والظلم وعمرها بالدين الصحيح والعدالة والخير والأمن والصلاح ؟ أم يريد أن يلحق بالركب المادى الحاضر الذى طبعه الاستعمار بأوضار ثقافته الكافرة الفاجرة فيلحق فى حزب الشيطان ؟ أعاذ الله المسلمين من عاقبة السوء .

وهذا النوع من صيام بعض الناس الذين يصومون رمضان بتوجع وتحسر وسوء استقبال ، ويتمنون سرعة انقضائه ، قد أورثهم هذا الصيام حرجاً في نفوسهم وضيقاً في صدورهم ، فتجدهم حمقى ، سريعي السخط ، يغضبون لأدنى سبب . وقد اشتهر هذا بينهم حتى صار كاعتقاد طبيعي للصوم بحيث إذا فحش أحدهم بالكلام وتمادى فى الغضب على مقابله قال بعض

السامعين – لاتعتب عليه فإنه صائم – كأن الصائم يمن على الله وعلى خلقه بصيامه ، فلا يتحمل منهم كلاماً ولا مفاوضة .

والصائم بإيمان واحتساب وخشية ومراقبة وتعظيم ومحبة لله يجب أن يكون بخلاف ذلك ، فيكون راضياً مرضياً ، مطمئن النفس ، منشرح الصدر ، مسروراً ملتذاً ، شاكراً لله الذى فسح فى عمره حتى بلغه صيام هذا الشهر ولم يجعله من أصحاب القبور ، فلا يكون في نفسه اضطراب ولا انزعاج ولا ضيق ولا حرج أبداً ، بل يكون أوسع أفقاً ، وأشرح صدراً ، وأطيب نفساً ، وأهدأ أعصاباً ، وأقوى روحاً ، فيكون على أحسن خلق في معاملته ومقابلته وحلمه ومفاوضته ، وإذا ابتلى بخصم من الحمقى لم يجاره في حمقه وسفاهته ، بل يقل له ثلاث مرات – إني صائم – كما أرشد لذلك الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم .

هكذا يجب أن تكون آثار الصيام الصحيح ، بحيث لو أثر على جسمه بشيء من الفتور لايؤثر على عقله وروحه الطيبة المستنيرة بنور الله ، بل يجب أن تكون روحه ومعنويته أحسن وأقوى من حاله فى الإفطار ، وذلك شكراً لله تعالى ، ليحصل على بركة الصيام حسياً ومعنوياً بطيب نفسه وخلقه فتتضاعف أجوره من ربه .

فالغاية الكبرى من الصيام هى التقوى بجميع معانيها ومبانيها ، إذ هى فى اللغة مشتقة من (التوقى) وأخذ الوقاية . ففى الصوم يتوقى المؤمن من المعاصي والآثام ، فيأخذ لنفسه وقاية من عذاب الله وموجبات سخطه . وفى الصوم يعظم إحساسه وتقوى عزيمته على حمل رسالته والقيام بواجب وظيفة الله فى أخذ القرآن بقوة والدفع به وبرسالة النبى إلى الأمام ليصلح بهما ما أفسده المبطلون فى مشارق الأرض ومغاربها ، وينقذ الناس من الظلم والاستعباد والتهتك والانحلال ، فيستعد لأجل ذلك بأخذ القوة وتسخير

كل دابة ومادة على وجه الأرض أو فى جوفها أو أجوائها ، ليتقوى بذلك على ردع من يقف فى وجهه ويحول دونه ودون رسالته ، فيكون آخذاً بأسباب الوقاية التى تقيه من غضب الله وعذابه بسبب إجرامه أو تفريطه فى واجبه أمام الله مندفعاً بما يكسبه الصوم إياه من قوة الإرادة وطهارة الروح .

والمؤمنون الذين خاطبهم الله فى القرآن يعلمون مكان التقوى عند الله ووزنها فى ميزانه وقوة تأثيرها وحسن نتائجها فى أعمالهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، مما يحصلون به على السعادة الصحيحة والحياة الطيبة فى الدارين ، فهى غاية تتطلع إليها أرواحهم فتندفع إليها بقوة .

وهذا الصوم أكبر حافز لتحصيلها ، وخير أداة من أدواتها ، وأحسن طريق موصل إليها ، ومن ثم يرفعها سياق القرآن فى ختام الآية لفرضية الصيام أمام عيونهم وقلوبهم هدفاً وضاءاً ينهجون إليه عن طريق الصيام ، فيكسبهم التوبة عما اقترفوه من الذنوب قبله ، ويكسبهم الجد والنشاط فى القيام بوظيفة الله التى يتشرفون بها وينجون ، ولذا وصف الرسول صلى الله عليه وسلم الصيام بأعظم وصف ، إذ يقول : (الصيام جنة) بضم الجيم ، أى ستر ووقاية يقى صاحبه من المعاصى ومن جميع المزالق التى يتردى بها فى حياته بانهماكه فى الملذات أو قنوعه بالعيشة البهيمية دون التفات إلى وظيفته .

وورد فى الحديث زيادة عند الإمام أحمد : (الصوم جنة مالم يخرقها) أى يخرقها بشىء من أعمال الإثم وسوء النية أو سوء الاستقبال له وعدم الانشراح به ، أو يخرقها بسوء الفهم وعدم مراقبة الله ، فيكون صيامه كتقليد موروث لاينتفع به ولا يتأثر فى أى ناحية من نواحى سلوكه ، فيكون قد خرق الحكمة الناشئة من الصوم الصحيح ، فإن جنة الصيام تنخرق

بالإصرار على المعاصى وبالعزم على العودة إليها بعد رمضان ، وبالتفريط فى جنب الله ونبذ كتابه واطراح رسالته ولو خارج رمضان ، فإن المقصود من فريضة الصيام توجيه الأمة إلى رب رمضان فى جميع الأزمان لا لمجرد عبادته فى رمضان ، ولذلك كان من لم ينتفع فيه محروماً راغماً أنفه والعياذ بالله ، لأن الصوم جنة ووقاية عن أدواء الروح والقلب والبدن ، وله تأثير عجيب فى حفظ الجوارح الظاهرة والقوى الباطنة ، فهو لجام المتقين وجُـنة المحاربين لأعدائهم من شياطين الجن والإنس .

والصوم أيضاً رياض للأبرار المتقين للتدرب على وظيفتهم بخلافة الله في الأرض ، وهو رحمة عظيمة النفع للبدن والروح جميعاً وفيه مقصد شريف مهم أيضاً ، وهو اجتماع القلب والهم على الله ، وتوفير قوى النفس على محبته وطاعته والجهاد في سبيله لتكون كلمته هي العليا وكلمة الكفار السفلى مهما تنوعت بألقابها وشعاراتها .

وفى الصوم من الفوائد الاجتماعية للمساواة فى الحكم فيه بين الأغنياء والفقراء والحكام والسوقة (هذا من جهة) ومن جهة أخرى إعداد الصائمين لتقوى الله فيما بينهم بأن يتفقد بعضهم بعضاً ، حيث يتساوون فى الجوع ، فتذهب غفلة الشبعان عن الجائع ، ويتذكر الموسرحال المعسرين ، ويتقى الله فيمايسأله عنهم من الأرحام ، كما قال تعالى : (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام)[1]، فيحملهم التذكر على الرأفة والرحمة الداعيتين إلى البذل والصدقة ، لاسيما مع رقة القلب والاجتماع على سماع المواعظ والرغبة فى مزيد الأجر والثواب مما ينتعش به المجتمع ويزول بؤسه . ومنها تعليم الأمة النظام فى المعيشة ، إذ جميع الصائمين يفطرون فى وقت واحد بلا تقديم ولا تأخير .

---

(١) سورة النساء، آية (١)

ثم إن فى الصوم صحة عظيمة بجميع معانيها ، صحة بدنية حسية وصحة روحية معنوية . فالصحة البدنية فى كونه يفنى بعض المواد الراسبة فى البدن ، ولاسيا أبدان المترفين أولى النعمة والنهمة والتخم وقليلى العمل والتعب ، فقد قال علماء الطب إنه يحفظ الرطوبات الطارئة ، ويطهر الأمعاء من فساد الذؤب والسموم التى تحدثها البطنة ، ويحول دون كثرة الشحم فى الجوف ، وهى شديدة الخطر على القلب ، فهو كتضمير الخيل الذى يزيدها قوة على الكر والفر .

ونقل صاحب المنار رحمه الله عن بعض أطباء الإفرنج أنه قال : (صيام شهر فى السنة يذيب الفضلات الميتة فى البدن مدة سنة) .

وأما الصحة المعنوية الروحية فهى ماقدمناه ، وما سنذكره أيضاً من فوائد الصيام فى نفوس الصائمين ، وتوجيههم إلى الله القوى المحبة والتعظيم وحسن المراقبة ومعرفة الصائم وظيفته لعلام الغيوب ، وإعدادهم للأخذ بجميع وسائل التقوى التى تقيهم من الخزى والذل والخسران فى الحياةالدنيا ، ومن عذاب الخزى فى الدار الأخرى ، فتصح قلوبهم وتشفى من مرض الشبهات ومرض الشهوات الذي ابتلى به أهل الأرض ، وذهب بأمن حياتهم وراحتهم ، وأفقدهم الوحدة الصحيحة الروحية ، وصدق النبى صلى الله عليه وسلم إذ يقول : (صوموا تصحوا) .

فنى الصوم صحة القلوب والأرواح وصحة الأدمغة الذى يحصل به حسن التفكير فى كينونة الإنسان التى لايملك مجاوزتها فى هذه الأرض ومعرفة مركزه فيها ووظيفته لرب العالمين ، وأنه إذا لم يستق المعلومات من ربه ، ويستلهم الهداية من وحيه ، ويقوم بتنفيذ حكمه وتشريعه ، فقد تنكر لنعمته وإحسانه ، وكفر به كفراً عملياً بدل الشكر الواجب عليه ، وانسلخ من شرف جندية مولاه العزيز الرحيم إلى مخلوق مثله ، يشغله بمذاهب وأنظمة

مصطنعة مضطربة يضل بها عن سواء السبيل ، ويسعى بإضلال غيره أيضاً ثم يشقى بها فترة من الزمن ، ويشقى غيره بتطبيقها عليه ، ثم ينتقل إلى غيرها مما تتنوع بها ضلالته ، وتزداد شقاوته ، ومن يدور معه فى فلكه ، فتكون حياته شراً عليه وعلى غيره ، ثم بعد مماته يكون ممن يحملون أوزارهم كاملة يوم القيامة ، وأوزار الذين يضلونهم بغير علم .

هكذا يتفطن الصائم فيصح تفكيره من تأثير الصيام الصحيح ، فيستنير بنور الله ، ويستجيب لنداءاته جل وعلا ، ويحقق طاعته له ، رافضا الاستجابة لغيره أو طاعة سواه من ملاحدة الشرق والغرب الذين يدعون الفلسفة المتناقضة (ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون)[1] ثم بصحة تفكيره وسلامة ضميره يصفو قلبه من الصدأ ، وينصقل من رين الذنوب ، لمراقبته الله وإنابته إليه ، فلا يعود بعد رمضان إلى غفلته السابقة أو أعماله التى فيها شرود عن الله وإضاعة لأوقات عمره النفيسة فيما يحرمه حظوظه الغالية من الله ، بل يخرج من صيامه بإنسانية جديدة تحمل القوة المعنوية والطموح الصحيح والشموخ برأسه إلى استلام القيادة العالمية التى هيأهالله لانتزاعها من اليهود العابثين بمقدرات أهل الأرض ، ويربأ بنفسه من عار التقليد والتبعية التى ابتلى بها كثير من العصريين المتشدقين بمسايرة الركب والتطور ، معلنين على أنفسهم بتبعية المسايرة ، والله يوجب على المسلم أن يسير بالناس على صراطه المستقيم بضوء وحيه الذى ورثه من نبيه محمد صلى الله عليه وسلم لا أن يكون مسايراً للناس ، منضبعاً بعلومهم المادية ومنصبغاً بفلسفتهم الإلحادية ، فإنّ من كان على هذه الحالة بعد شهر رمضان لم ينتفع بصيامه ، وكان كالبهيمة المحبوسة عن الطعام والشراب وقتاً معيناً ، وبعدم انتفاعه . بتشريعات الله ، يكون مزعزع الكيان أو فاقداً له بالكلية ، ويكون ذنباً

---

(١) سورة المائدة، آية (٥٠).

تابعاً ، لا رأساً متبوعاً . ومهما ادعى لنفسه التحرر والتقدمية فهو مستعبد معنوياً وفكرياً ، ومتأخر حقيقة ، ولكنه يخادع نفسه ويخدع المصغى له ممن تشبه ببنى إسرائيل ، فكان سماعاً للكذب والعياذ بالله .

وتقوية الإرادة فى النفوس ليس بالأمر الهين ، فقد عمل رجال الاجتماع وأصحاب التنظيم العسكريين على تقويتها فى المجتمع هذا الزمان ، وقد سبقهم الدين الإسلامى على ذلك بأربعة عشر قرناً . وما أحوج المسلم خاصة أن يكون قوى الإرادة ، صادق العزيمة ، ولذا أمره الله بتحمل المشاق فى الحج ، والصبر على فراق الأهل والأحباب ، وتعطيل المصالح الدنيوية أوبعضها ، والمسير إلى بلد لايبلغها أحد إلا بشق الأنفس ، ومكابدة ألم الجوع والعطش فى الصيام ، وقوة الصبر عن مألوفاته التى أعتادها حال الصيام ، إحتساباً لله ، ووفاء بأمانة الصوم الذى أضافه الله إليه ، مما يجعل المؤمن قوى الإرادة فى تحقيق ذلك ، بحيث لودفع له شىء من المال على ترك مألوفاته لم يقبل، ولكن يتركها حال صومه لله رب العالمين .

فجدير بالصائم أن لايفعل بعد إفطاره مايخل بهذه القوة أو يوهنها أو يقلل من شأنها ، فيهدم فى ليلة مابناه فى نهاره من قوة الإرادة التى صبر بسببها عن محبوباته ومألوفاته . فما أحزمه لو استغل شهر الصيام كمدرسة يتدرب بها على هجر ما يكرهه هو ، أو يكرهه الشارع من مألوفاته التى اعتاد أكلها أو شربها أو مقاربتها . تالله ما أحزمه لو واصل هذه الحمية عن ذلك بالليل كما عملها فى النهار . وإن هو عكس الأمر وأخذ يتأفف على ماحرمه منه الصيام ، ويتلهف لساعة الإفطار للإسراع إلى تناول مألوفاته المضرة بنهمة ، فقد ضيع الحزم والعزم وبرهن على خوره وضعف نفسه وانعدام يقينه وقلة صبره وانحلال معنويته وانعدام عزيمته وبشاعة هزيمته،

وأنه لا يزال فاقد الإرادة ، مغلوباً على أمره داخلياً ، لم يستفد من صيامه ، ولم ينجح من مدرسته التدريبية بشىء ، فلم يكتسب المرونة المطلوبة من فرضية الصيام إذ لم يحمل نفسه على الصبر المتواصل ، فهو وإن كان مثاباً من جهة صيامه الساعات المحدودة إلا أنه لم ينتفع من الناحية النفسية والاجتماعية. إذ هو بضعف إرادته التى جرته إلى الإقبال على مألوفاته بجشع ونهمة قد هدم فى ليله مابناه صومه فى نهاره ، وأثبت أن صيامه مجرد روحانية خاصة قاسرة .

نعم إن من يقبل حين إفطاره على مألوفاته الخسيسة من دخان أو حشيشة أو قات ونحوه من المفترات أو المخدرات ، فقد برهن على ضعف إرادته وانهزامه النفسى الذى هدم به فى ليله مابناه صيامه فى نهاره ، وأثبت أن صيامه صياماً تقليدياً يشوبه التوجع والتأفف على عدم تناول مألوفاته ، وأن صبره ليس منبثقاً عن قوة نفسية وصدق عزيمة ، وإنما جاء قسراً من ضغط البيئة أو من الخضوع الدينى الذى أجبره على احترام شهر رمضان فى ساعات محدودة لايتعداها صبره عن تناول مألوفه الذى هو مكروه فى الشرع ، مستقبح فى الطبع ، ضار فى الوضع لقلبه أو عقله أو بدنه أو ماله ، أو مضيق لمعيشة عياله ، فلم يخرج من ذلك الصوم بمرونة وتهذيب للنفس يكتسب به قوة الإرادة التى يجب أن يظفر بها الصائم صياماً حقيقياً كاملا يحبه الله وتظهر نتائجه فى تقوية معنوية فاعلة من كل ناحية ، كما هى الحكمة العظمى من حكم الصوم التى أخذ علماء التربية والاجتماع الآن يعملون على تقويتها فى النفوس بشتى الوسائل ، كما يذكر عن اهتمام (ألمانيا) بتقوية الإرادة .

ونحن أغنياء بتشريعات ديننا القويم الذى وضعه لنا العليم الحكيم جل شأنه ، فلسنا بحاجة إلى التطفل على غيرنا فى التربية ، إذ تربية أولئك مبنية

على المادة الصرفة التى تقلق راحة الإنسان وتزيد من جموحه إلى الشر بسببها .

وتربية الشارع الحكيم جمعت بين الروح والمادة بميزان تغلب فيه الروح وترجح ، فتسيطر على مشاعره عن الجماح والانحراف . فالمسلم بحمد الله على بينة من أمره وحكم عليا فى دينه الذى يتلوه شاهد منه لايحتاج معه إلى الاستشهاد بغيره ، وإنما يحتاج إلى التطبيق وأخذ ما أنزل إليه بقوة .

ومن لم يتأثر بما يقوله وما يعمله من أركان الإسلام وشعائره تأثراً روحياً ومعنوياً تنسبك به أخلاقه وطبائعه ، فليس جديراً بحمل رسالته العظيمة التى أوجب الله عليه حملها فى جميع نواحى الأرض ليصلح بها ما أفسد الناس ويكون مصدر العزة والحكمة ومنبع الخير والرحمة كما هيأه الله بماشرع فى دينه لذلك .

والمسلمون ماقست قلوبهم وتقاعسوا عن واجبهم فكانوا عرضة لغزو أعدائهم سياسياً وثقافياً إلا بسبب عدم تأثرهم بما يكررون قوله وفعله من أركان الإسلام وشعائره مما أصبح والعياذ بالله (كطقوس روتينية) بحيث غلبهم أصحاب المبادئ الوثنية والمذاهب المادية الجديدة التى يتفانون فى نشرها وتركيزها بكل حماس وتضحية حتى كسبوا أولاد المسلمين كسباً رخيصاً ، بل اختطفوا عقول الكثيرين من آبائهم أيضاً .

ولو أنهم تأثروا بما يقولونه ويفعلونه تأثراً صحيحاً لأجج فى قلوبهم نار الغيرة لله والانتصار لما أنزله عليهم من الحق محبة صحيحة له ولرسوله ، فحملوا رسالتهم القويمة العظيمة الخالدة ، ودفعوا بها إلى الأمام ، ودفعوا الباطل بسيوف الحق الدامغة ، فلم يسمحوا له بالانتشار ، ولم يوجدوا له فراغاً ينفذ منه ، بل شغلوا الفراغ بالحق بدلا من أن يشغله غيرهم بالباطل ، ووقفوا سداً منيعاً أمام كل تيار بحيث يدفعونه حتى يتلاشى ، كما دفعه

أسلافهم الصالحون الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

فالدين الإسلامى دين حيوى يجمع تشريعاته القولية والفعلية والاعتقادية . فكل شعيرة منه تعمر الضمير وتزيد فى تقوى الله ومحبته وتعظيمه ، وتحمل صاحبها على التفانى فى نصرة دينه اقتداء برسوله عليه الصلاة والسلام .

وما انطفأت نار الغيرة والحب إلا بسبب عدم التأثر المطلوب ، لأن المسلم فى هذا الزمان ويالأسف أصبح عنده ذكر الله وتلاوة كتابه لايتجاوزان الحنجرة ، وكذلك الصلاة يصليها بجسمه لابقلبه . والصيام يؤديه كعادة رسمية يحترمها مع التضجر على مايمتنع منه والتلهف على سرعة تناوله . فلا الذكر والقرآن يورثان المحبة والتعظيم والتدبر والتفكر . ولا الصلاة تورث الإخبات والإنابة لخلوها من الخشوع ولا الصوم يورثه قوة الإرادة ورباطة الجأش وصدق العزيمة .

والواجب أن تستقيم أموره كما يحب الله منه ويوجبه عليه ، فيطمئن قلبه بذكر الله، وينيب إليه، ويخشع بتمام مراقبته لله، وبالإجلال والتعظيم له فى الصلاة ينتهى عن الفحشاء والمنكر ، وأن تتوفر فيه جميع حكم الصيام وغيره لتؤتى كل شعيرة ثمرتها المقصودة من شرعيتها ، فيكون عبداً شكوراً قائماً بوظيفته لربه فى الحياة ، مجاهداً فى الله حق جهاده ، لينال ماوعده الله به من العز والنصر والتمكين والنجاة من الشرور (فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم)[1] . فالصوم الصحيح يبقى في قلب صاحبه من الصحة والشفاء الروحي ما يقيه من الأمراض المعنوية ، كما أنه يتأثر بالصلاة الخاشعة وقراءة القرآن بالتدبر حال صيامه مما تعرج به روحه إلى مولاه عروجاً معنوياً يكسبه الاستقامة على طاعته ، والقيام بحسن المعاملة للخالق والمخلوق ، ويرهف إحساسه

(١) سورة محمد، آية (٢١).

نحو رسالته ، فيتفانى فى حملها ويبذل النفس والنفيس فى سبيلها قياماً بحق الله ، وبسلامة قلبه من الأمراض المعنوية وصلاح أعماله يكون قدوة صالحة بين الأنام ، فيحصل لدعوته القبول التام لمايرون فيه من الأسوة الحسنة ، فهكذا يوجب الله على المسلمين أن يكونوا فى الأرض لتعمر بهم عمارة روحية ومعنوية .

فصلى الله عليك من رسول أوتيت جوامع الكلم . تالله إن كلماته القصيرة الحكيمة فى هذين الحديثين الشريفين : (الصوم جنة مالم يخرقها) ، و (صوموا تصحوا) لو تكلم بهما بعض ما يسمى بالفلاسفة أو بعض أطباء الغرب في هذا الزمان الموبوءة فيه أوضاع أهله ، لطفحت بهما الصحف بالعناوين الضخمة ووجدا رواجاً عظيماً عند الماديين الذين رفضوا الروحانيات وأصبحوا لايتلقون الهداية من مشكاة النبوة ، بل يتلقون أقوال هذا وذاك ممن (ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً)[1] .

والمؤمن الصحيح يجب عليه أن يحصر التلقى للنور والهداية على وحى الله من كتاب وسنة ، ويجعلهما الميزان الصحيح لكل ما يرد عليه ، وأن يقدر رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه حاضر عنده لايغيب عنه ، ويلاحظ إطلاع الله علية أيضاً ، فيتمسك بوحيه الذي هو حبله المتين ، أي عهده المتين ، ويقتدى بنبيه عليه الصلاة والسلام قولا وعملا ، لتكون حياته امتداداً لحياته الطاهرة ، وإن لم يكن كذلك فإن حياته صورة لغيره والعياذ بالله .

إن الإلـه العليم الحكيم الذى جعل الصيام ركناً من أركان الإسلام ومبانيه ، ودعامة عظيمة من دعائمه ، شرعه لتحقيق إنسانيتنا والارتفاع بها عن مستوى البهائم . ذلك أن الإنسان ليس هو هذه الجثة القائمة بهيكلها المنتصب فقط إلا إذا فقد الروح السماوية التى يمده الله بها . فإذا فقدها كان بمجرد

---

(١) سورة الكهف، آية (١٠٤).

هيكله مشابهاً للحيوان ، بل يكون أشر وأضر منه، ولكن الله يمده بروح من عنده فيما يشرعه له من العبادات المتنوعة المزكية لنفسه والمصلحة لأحواله وشؤونه كلها .

فالإنسان جسد سفلى وروح علوى ، فلجسده مطالب من جنس علله السفلى ، ولروحه مطالب علوية من جنسها . فإذا أخضع روحه لمطالب جسده وحكم غريزته الحيوانية فقد استحكمت بهيميته على عقله وروحه وانقلب من مالك مدبر إلى حيوان مسير يسيره الهوى المخالف لوحى الله ، وقد يتشيطن بابتعاده عن أوامر ربه فيكون شيطاناً رجيماً من جن إبليس الذين يكسبهم كسباً رخيصاً .

أما إذا عرف قيمة نفسه وأدرك سر الله فيه ، وحكم جانب الروح حتى يخضع جسده لها ، فتغلب روحه على نزعات جسده ، ويصفو قلبه من همزات الشياطين ، وينشغل بحب ربه والاتجاه إليه ، فإنه يكون ذلك الإنسان الكامل العاقل المفكر المتطلع إلى ملكوت السماء ، والمترفع على الدنايا ، والشامخ إلى استلام زمام قيادة الله فى أرضه ، وحسن التصرف فيما استخلفه فيها .

ومن هنا فرض الله الصيام ليتحرر الإنسان من سلطان أهوائه وغرائزه البهيمية وينطلق من سجنها ظافراً متغلباً عليها .

وعلى العموم فإن شهر رمضان مدرسة تربية رحمانية يتدرب بها المسلم المؤمن على تقوية الإرادة فى الوقوف عند حدود ربه فى كل شىء ، والتسليم لحكمه فى كل شىء،وتنفيذ أوامره وشريعته فى كل شىء، وترك ما يضره فى فى دينه أو دنياه أو بدنه من كل شىء، ليضبط جوارحه وأحاسيسه جميعاً عن كل مالا ينبغى بتدربه الكامل فى هذ الشهر المبارك ، ليحصل على تقوى الله فى كل وقت وحين ، وفى أى حال ومكان ، وذلك إذا اجتهد على

التحفظ فى هذه المدرسة الرحمانية بمواصلة الليل مع النهار على ترك كل إثم وقبيح ، وضبط جوارحه كلها عما لا يجوز فعله ، ومواصلة هجران ما ابتلى به بعد الإفطار كما قبله لينجح من هذه المدرسة حقاً ، ويخرج ظافراً من جهاده لنفسه ، موفراً مواهبه الإنسانية وطاقاته المادية والمعنوية لجهاد أعدائه .

فعليه أن يغتنم هذه المدرسة بصدق العزيمة والنشاط وحسن مراقبة الله حتى لايكون من الراسبين المغبونين . عليه أن يمسك لسانه عن أنواع البذاء وفضول الكلام ، كما أمسك فمه عن الطعام والشراب ، وأن يواصل إمساكه بالليل عن ذلك ، فلا ينطق إلا بالحض على الخير والأمر بالمعروف والكلمات النافعة البناءة الصالحة المصلحة ، وأن يشغله بالذكر والتلاوة والندوات الطيبة المشتملة على ذلك ، فإن من أمسك عن الطعام ولم يمسك لسانه عن الهمز واللمز وأنواع البذاءة ، فقد أحبط أجر صيامه من جهة ، ورفض التعلم فى مدرسة الله من جهة أخرى ، ومن أمسك لسانه بالنهار وأطلقه بالليل فقد أفطر على الحرام ، ولم يواصل التعلم والتدريب فى مدرسة الله ، ولا بد له من السقوط ، فليحذر من ذلك .

ومن كان مبتلى بالطمع والجشع يغبن الناس فى المعاملة بالأيمان الكاذبة ، ويغشهم بأنواع التدليس أو يطفف عليهم فى وزن أو كيل أو ذرع ، فليحذر من فساد صومه بالإفطار على الحرام ، وليحسن معاملته قولا وفعلا ، ليتدرب على الصدق والنصح خارج رمضان ، فيكون ممن تزود فيه التقوى ، والتقوى خير زاد . فإن لم يكن كذلك بأن استمر على غشه وسوء معاملته حال الصيام ، أو توقف عنها ثم رجع إليها بعد صيامه ، فهو الرافض لمدرسة الله والساقط من تدريبها ، فهو متعرض لإبعاد الله ومقته ، محروم من مغفرته فى هذا الموسم الكريم .

ومن كان مبتلى بالشهوات والطمع فى أعراض الناس ، فشهر الصيام خير مدرسة له ، تزجره عن ذلك إذا عقل حكم الله ، وتدبر حكمته ،

وحرص على إصلاح صومه وتحصيل ثوابه . ففيه يتدرب على غض البصر وكف الجوارح إذا كان فى الليل معرضاً عن ذلك بقلبه وقالبه ، ويجب عليه إشغال قلبه بالتفكر فى آيات الله وتذكر نعم الله عليه نعمة نعمة ، ويحاسب نفسه على شكرها بحسن التصرف فيها ، ويجعل قلبه سايحاً فى ذلك ، كى لاينشغل بذكر محبوباته ومعشوقاته ، فيكون متعلقاً بها متلهفاً على حصولها والوصول إليها ، فيحدوه ذلك على العزم على مقاربة الفواحش بعد رمضان .

وعقد العزم والإصرارهما من موجبات الإثم ومحبطات الأجر ، ومن كان هكذا فإنه لاشك ساقط من مدرسة الرحمن وغير منتفع بصيام رمضان ، فكيف بمن اقترف المعاصى فيه والعياذ بالله ؟ ومن ابتلى بالتسلط على الناس بأى نوع من أنواع التسلط لكبريائه أو مركزه ، فإن هذا الشهر مدرسة له يتدرب فيها على الكف عن سوء طباعه ، فإن لم ينطبع فيه ويتكيف بتقوى الله بعد خروجه ، فهو الشقى المحروم ، لأنه ممن رفض هذه المدرسة أورسب فيها فلم ينل التواضع والإنصاف .

ومن ابتلى بشىء من المشروبات المفترة ، فضلا عن المسكرة ، فعليه أن يستغل مدرسة شهر الصوم ليصوم عنها فى ليله كما صام عنها فى نهاره ، وليربأ بنفسه من الإفطار على خبيث محرم أو مكروه بعد ماصام عن الطيب والحلال ، حتى المبتلى بالدخان ونحوه ، عليه مواصلة الصوم عنه فى الليل ليهجره إلى غير رجعة ، ولا يغلبه اليهود الذين حرموه فى دولتهم المسماة (إسرائيل) فقد حرموه بادئ الأمر على جنودهم ، ثم حرموه على الأساتذة والطلاب فى جميع المدارس على اختلافها ، فمن العار والشنار على المسلمين الذين هم جند الله أن يغلبهم اليهود على تحريم ذلك وهجره ، فأولى بالمسلمين وأولى أن يكونوا هم السابقون لجميع العالم فى كل شىء لا لليهود فقط ،

وأن يهذبوا أنفسهم بحسن جهادها ليتهيؤا للجهاد الأكبر الذى أسلفناه ، فإن المهزوم داخلياً لايصلح للجهاد ولا لأى إعداد .

وفى شهر رمضان يتدرب المسلم على عبادة الله ، ويجد لها حلاوة ، ويألف المساجد ويعمرها ، ويحظى بصحبة الأخيار ، فتغشاه الرحمة وتعمه البركة من الله ، لاسيا من وفق لصلاة التراويح ، ورتع قلبه فى ربيع القرآن ، ورزقه الله الخشوع ، فإنه ينتفع إنتفاعاً روحياً يكتسب به الإقبال على الله ، والترفع عن اقتراف الإثم الذى يغمسه فى المعاصى . فالمضيع للصلاة إذا عاودها واعتادها فى رمضان يرجى له أن يداوم عليها بعد رمضان لما ينغرس فى قلبه من التقوى والرجوع إلى الله فيه .

وكذلك الذين هم عن صلاتهم ساهون بتأخيرها أو عدم إقامتها جماعة ، وقلة إلفهم للمساجد وعدم تعلقهم بها ، يحصل لهم المواظبة فى شهر رمضان على الصلاة جماعة فى أوقاتها ، فيألفون المساجد بإقامة الصلاة ، فإذا وفقوا للنجاح فى هذه المدرسة الرمضانية الربانية بحسن نيتهم وصدق إقبالهم على الله ، كانوا طيلة السنة على صلاتهم دائمين وإليها مقبلين عن حب وشغف ، فيكونوا محافظين على أدائها فى المساجد .

وقد ذكر النبى صلى الله عليه وسلم فى تعداد السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله – رجل قلبه معلق بالمساجد – والمسلم لايجد حلاوة الإيمان حتى يستعذب الطاعة ويستشعر المغيبات من وعد الله ووعيده كأنها شىء حاضر ماثل أمام عينيه ليقوم بتحقيق الخوف والرجاء بالمسارعة إلى مرضاة الله والمنافسة فى طاعته واجتناب موجبات سخطه . وخير مدرسة للتدريب على ذلك هى مدرسة الصيام فى هذا الشهر المبارك .

وأيضاً فشهر الصوم مدرسة للبخيل الذى ابتلى بالشح وقسوة القلب ، إذ يحصل له بصومه تذكير عملى أوقع فى نفسه من نصح الناصح وخطبة

الخطيب ، لأنه تذكير يسمعه ويتلقنه من صوت بطنه إذا جاع وأمعائه إذا خلت ، وكبده إذا احترت من العطش ، يحصل له من ذلك تذكير عملى بجوع الجائعين ، وبؤس البائسين ، وحاجة المحتاجين ، فتسمح نفسه بأداء حق الله إليهم ، وقد يجود عليهم بزيادة (فشهر الصيام شهر الجود والمواساة ، وشهر يزاد فيه من رزق المؤمن ، كما قال صلى الله عليه وسلم ، وزاد فيه قوله : (من فطر صائماً كان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء) ،

وإن الذى تربى فى النعمة ولم يذق طعم الجوع أو مرارة العطش لايدرى ما يحل بغيره من البؤساء ، لكن بصيامه يحصل له التذكير العملى والتوجيه اللاشعورى ، كما يحصل له حق المعرفة بقدر نعمة الله عليه ، فإن النعمة لايعرف قدرها إلا من فقدها ، وكلما ازدادت معرفة المسلم بالنعمة ازداد قيامه بشكرها . والشكر الصحيح المطلوب هو حسن التصرف فى النعم ، وذلك باستعمالها فى طاعة الله والاستعانة بها على حمل رسالته وتنفيذ وصاياه فى وحيه وعدم صرف شيء منها فى معصيته .

والصوم الصحيح يحقق المعرفة بالنعمة ويوقظ الشعور إلى حسن التصرف فيها ، ولذا ختم الله الآيات المتعلقة بالصيام بقوله (لعلكم تشكرون) كما سنفصله إن شاء الله .

ثم إن فى شهر الصيام مدرسة للقرآن لمن التفت إلى الله فيه وأكثر من قراءته ، فإنه مع مايجنيه من الثواب العظيم بمضاعفة الحسنات يحصل له التدريب على مواصلة قراءة القرآن خارج رمضان ، ويحفزه ذلك على تدبر الآيات وتعقلها ومحاسبة النفس عليها ، ليكون من التالين كتاب الله حق تلاوته بمعرفة معانيه ، والوقوف عند حدوده بفعل ما أمر الله . وقد يكون ذلك سبباً لسعادته وراحة لقلبه إذا انشغل به عما سواه .

وبالجملة فهو شهر يحصل به تقوية الإرادة على فعل الخير وترك الشر وهجر المضر الذى قد ابتلى به كثير من الناس ، كالدخان الذى يستنفد فيه مبلغ كبير من المال يسيل إلى الشركات الأجنبية التى أصبحت عوناً علينا لليهود ، مما لو ضبط لبلغ مئات الملايين بالعملة الصعبة لكل قطر عربى ، زيادة على ما فيه من هدم الصحة والإضرار بالرئة والقلب والتأثير على الرأس والعقل . وإنى أنصح الصائم أن يتدرب فى صومه عنه بالنهار على تركه بالليل نهائياً إلى غير رجعة . أنصحه بكل حرارة أن يواصل عزيمته وقوة إرادته بالليل كما كانت بالنهار ، فإن الله جعل له الصيام (جنة) ووقاية من تناول مايضره ، فلا يليق به أن يخرق هذه الجنة ويضيع هذه الوقاية بأن تغلبه نفسه الأمارة بالسوء على الرجوع إلى ذلك بالليل بعد ماتركه فى النهار . يجب أن لاتخور قواه ولا يفسد حكمة صيامه بضعف إرادته وشدة هلعه عند الإفطار ، فيكون ساقطاً من هذه المدرسة الكريمة .

فالله الله أيها الصائمون ، اغتنموا هذه الفرصة للعزوف فيها عن كل شر ، وترك كل شيء مضر ، ليكون صيامكم صياماً إنسانياً كاملا ، قد توفرت فيه القوة ، وحصلت منه الحكمة ، لا أن يكون صوماً بهيمياً . وقاكم الله من مثل السوء إن صوم رمضان من أركان الإسلام ومبانيه ، لاينكره إلا كافر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وكل من يستهجن الصيام أويستهزئ به فهو مرتد عن دين الله ، تجرى عليه أحكام المرتدين من وجوب قتله وأخـذ ماله ، لأنه لايرث ولا يورث ، وينفسخ عقد نكاحه ، بحيث قال السادة الشافعية : (من أتى بما يوجب الردة فى بلد لاتقام فيه حدود الله أولا يطبق فيه شرعه ، كان نكاحه منفسخاً فى نفس الأمر ، ومعاشرته لزوجته تعتبر سفاحاً) .

ولقد كسب الإفرنج فى تربيتهم لأبنائنا كثيراً من هذا النوع الذى يستهجن أوامر الله وينفر من طاعته ، بل يتطاول على الله بالتنديد لدينه والاستهزاء

والتشكيك فى فرائضه وحدوده ، لما انغرس فى قلبه من الإلحاد بما يلقنه أساتذة السوء وما يقذف به بواسطة وسائل النشر المختلفة من ضروب التشكيك وتحبيب التمرد على الروحانيات .

ومن المصيبة أن هذا الصوم لو شرعته المنظمات الدولية الكافرة وأوجبته على جيشها أو على شبابها أو كشافتها ، لما وجدنا أحداً من هؤلاء المضبوعين يستهجنه أو يستهزأ عليه ، بل ينعكس أمرهم إلى مدحه وشدة إطرائه والحث عليه والإعجاب بمن شرعه ، لأنه من أعظم وأحسن وسائل التربية ، ولكن لما كان المشرع هو رب العالمين على لسان نبيه العربى الذى حسدته اليهودية العالمية وأذنابها ، كان هذا جزاؤه من أبنائه المتبجحين بالعروبة . وفقهم الله للخير والصواب .

فيا إخوانى إن شريعتكم عظيمة حكيمة ، لأن رسالتكم رسالة عامة خالدة ما دامت السموات والأرض ، وليس فيها تشريع لايساير التطور الصحيح ، أو ينقص من المجهود كما يزعمون ، فإن الذى يكون قوياً أميناً فى حفظ أمانة الله ورعاية أوامره يكون قوياً فى عمله ، أميناً على ما استرعاه غيره من عمل .

ومن خان أمانة الله العظمى فى شرائع دينه فهو لغيرها أشد خيانة ، ومن تدرب على قوة الإرادة وصدق العزيمة شهراً كاملا عن إيمان واحتساب ، فإنه يكون قوى الشكيمة ، شديد المراس ، صلب فى التصميم .

فهذه تربية الرحمن الرحيم ، لابد أن تتفوق على تربية المخلوق ، وفيها من مسايرة التطور الصحيح ماتشهد له العقول الرجيحة ، كما نراهم الآن يلجأون إلى كل تشريع تحصل به القوة الجسمانية والعقلية .

ومن تأمل فى تربية الدول الحديثة لجيشها الذى تصطفيه للحرب والدفاع ،

عرف حكمة الله من شرعية الصوم والحج وغيره . فالمسلم هو جندى الله ، مكلف بحمل رسالته ، وتوزيع هدايته ، وقمع المفترى عليه ، وعدم السماح له بالانتشار ، فهو أحوج إلى التربية القوية من غيره .

وما أجهل الذين يفتون للعمال بالإفطار في رمضان، متعللين بحجة واهية، بل بشبهة مدحوضة لا يقرها الكفرة الأصليون ، فقد حصل من (الإنكليز) أكثر من مرة امتحان العمال المسلمين بين الصيام وبين خيانة الله فيه ، وذلك بإغرائهم بمضاعفة الأجور للمفطرين ، حتى إذا انتهى الشهر عكسوا الأمر ، فضاعفوا أجور الصائمين ، ونقصوا المفطرين أو طردوهم ، مع التصريح لهم أنهم خونة قد خانوا دينهم .

أما أفراخهم اليوم من المحسوبين على الإسلام فإنهم يتطاولون على وحى الله وحكمه ، زاعمين أن الصيام ينقص من الإنتاج ، مع أن الواقع يكذبهم فى ذلك ، فقد جرب المسلمون فى كل عصر صيام رمضان وقت اشتداد الحر ، وكل منهم يذهب إلى عمله ويؤدى واجبه ، ولم يزد والله تعبنا وقت الصيف فى رمضان على غيره . والعلة فى الحقيقة ليست من الصوم ذاته وإنما هى من ضعف النفس وقلة الإيمان .

فأولى لهم وأولى أن يعملوا على تربية نفوسهم وتقوية إرادتها وتسليم الحكم لله وحده ، وأن يعترفوا بأن حكمته فوق كل حكمة، وأمره فوق كل شىء.

والعجب أنهم لايعتبرون الأعياد القومية المختلفة المبتدعة على كثرتها منقصة للإنتاج ، وهى لو قورنت بالنقص الوهمى الذى يزعمونه فى الصيام لزادت عليه ، مع العلم أن الإسلام أبطل الأعياد القومية الوثنية لكونها أعيادا مادية أرضية لاروحانية فيها ، ولكونها ينفق فيها من الأموال ، ويضيع فيها من الوقت ، مافيه تبديد لطاقات الأمة دون فائدة تعود إلا على أفراد تسبح الدعاية بحمدهم وتقدس ويكون فيها مجالا ومربحاً للمداحين الذى أمر الشارع

أن يحثى فى وجوههم التراب وقد أسلفنا حديث المنع فيما مضى ، ولكن هذه الأعياد يروجها المتجرون بعواطف الشعوب ممن يريدون كيل المدح لأشخاصهم ، فنرجوا الله أن ينجيهم من الضلال وأن يرفعهم وينقذهم من هذه الهزيمة العقلية ، وأن يوفقهم لتدبر قوله تعالى : (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لايعلمون . إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين)[1] فإن هذا خطاب من الله سبحانه وتعالى لكل مسلم .

فالواجب على أمة محمد وورثة محمد صلى الله عليه وسلم أن يحاربوا الثقافة الاستعمارية الزائفة أعظم من محاربته عسكرياً ، لأن الاستعمار الثقافى أنكى وأفظع . والله حذرنا من طاعتهم واتباعهم في أي شيء من مذاهبهم وأذواقهم ، وأخبرنا أنهم يريدون ضلالنا وأن نميل مع الأهواء . قال تعالى : (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء)[2]، وقال تعالى : (ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيماً)[3]، لأننا إذا ساويناهم في ضلالتهم وفساد أخلاقهم فقدنا المدد من الله وابتعدنا عن الوحدة التى لايحققها الله لنا إلا بالاستمساك بهداه والاعتصام بحبله الذى هو القرآن ، وبدون ذلك يربح أعداؤنا المعركة فتتسلط علينا اليهودية العالمية التي ما فتئت تعمل لذلك.

وليعلم أن الذى يستهجن مشروعية الصيام فإنه مرتد عن الإسلام ولو صام، لأن ذلك من نواقض الإسلام ، وكذا من يبيح للعمال أو الطلاب الإفطار فى رمضان لاستدراكه على الله فى شرعه وعلمه وحكمته ، فجريمته عظيمة تزيد على الكفر ، لأنه نصب نفسه طاغوتاً مشرعاً من دون الله ، فهو منازع لألوهية الله وملوكيته فى الأرض ، وهذا بعض ماتجره الثقافة الاستعمارية

---

(١) سورة الجاثية، آية (١٨).

(٢) سورة النساء، آية (٨٩).

(٣)ـ سورة النساء، آية (٢٧).

الكافرة التى ركزت فيها الماسونية اليهودية كثيراً من ضروب الإلحاد .

هذا وليعلم أن مدرسة رمضان أعظم وأنفع من جميع المدارس العسكرية وكليات التربية الحديثة على اختلاف أنواعها ، لأن التربية العسكرية والمدنية كلها مقصورة على أشياء مادية خالية من الروحانية ، بخلاف المدرسة الرمضانية ، فإن تربيتها العامة مشربة بروح التقوى ، وأعظم فوائده الروحية التعبدية المقصودة بالذات هى كون الصائم يصوم لوجه الله، كما هو المشروط فى النية . وقد قال بعض العلماء بوجوب تبييت النية فى الليل ، مستنداً على حديث نبوى ، فمن صام لأجل الصحة فقط فليس عابداً لله فى صومه ، إلا أن ينوى العبادة معها ، وتقدم البحث عن آثار الصيام فى التقوى بما فيه كفاية .

صوم المريض والمسافر ــ وصوم عاشوراء

وقوله سبحانه وتعالى : (أياماً معدودات) يعنى معينات بالعدد ، وتعبيره سبحانه بذلك للتقليل الذى يراد به التسهيل . وزعم بعض المفسرين أن الأيام المعدودات غير رمضان كيوم عاشوراء ، وثلاثة أيام من كل شهر ، وليس عندهم نص يصلح للاستدلال قطعاً ، إذ لو ورد نص بذلك لتوفر نقله ، إذ يستحيل خفاء تكليف عمل به . وأما يوم عاشوراء فهو معظم فى شرع من قبلنا وورثت الجاهلية تعظيمه ، ويقال إن صومه كان واجباً قبل نزول فرضيه صيام رمضان . فلما نزلت فرضية صوم رمضان كانت ناسخة له، وهذا أيضاً يحتاج إلى دليل ، ولكن الواضح من الآثار هو أنه كان يصام فى الجاهلية وعند اليهود دون ورود دليل يوجبه علينا .

ويلاحظ من الأحاديث الصحيحة أن النبى صلى الله عليه وسلم بلغه فى آخر عمره أن اليهود تصومه تعظيماً له بحجة أنه اليوم الذى أنجى الله فيه موسى

وقومه من الغرق وأغرق أعداءهم فيه ، فقال صلى الله عليه وسلم : (نحن أحق بموسى من اليهود ، لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع مع العاشر) يريد مخالفتهم ، فبقيت هذه المخالفة سنة فى أمته .

وقوله سبحانه وتعالى : (فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر) يعنى من كان مصاباً بمرض يتكلف به أو يشق عليه الصيام بسببه ، فإنه يجوز له الإفطار ، وكذلك المسافر ، لأن السفر مظنة المشقة ، فإذا أفطر المريض أو المسافر جميع رمضان أو أياماً منه وجب عليه الاحتفاظ بقضاء أيام أخرى بدلا عما أفطره فى رمضان ، لأنه لابد للمسلم من تحصيل مصالح الصوم الحسية والمعنوية ، فإذا فاته صيام رمضان لعذر قضاه وقت استطاعته .

وقد أطلق الله المرض والسفر اكتفاء بمظنة المشقة ، فلم يحدد نوع المرض ولا صفته لاختلاف الناس فى الصبر والتحمل ، بل جعل مظنة المشقة كافياً فى تحقيق الرخصة تسهيلا على المكلفين وإناطة للمشقة بضمائرهم حسب إحساساتهم المختلفة ، لأن تحديد المشقة فيه عسر وعرفان الضرر بالتحقيق أعسر ، فقد يكون بعض الأمراض لايشق معه الصوم ولكنه يضر بالمريض أو يكون سبباً لطول مرضه أو زيادته ، فمن جملة يسر الدين وسماحته عدم تقييد الله لحدود المشقة فى المرض والسفر وجعله ذلك موكولا إلى نفس المكلف وضميره وما تقتضيه الحال من الملابسات .

وقد جاء ذكر المرض والسفر من الله بصيغة التنكير ليشمل كل مرض وكل سفر ، فلا عبرة بقول من حدد السفر بمسافة قصر لورود النصوص بخلافه ، فقد روى ابن أبى شيبة بسند صحيح عن ابن عمر أنه كان يقصر فى الميل الواحد من السفر . وروى سعيد بن منصور عن أبى سعيد قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فرسخاً قصر الصلاة . والفرسخ ثلاثة أميال .

وهذه الرواية تفسر ماروواه الإمام مسلم والإمام أحمد وأبو داود عن أنس من كون الثلاثة فراسخ أو الأيام ثلاثة أميال . ولاينافى هذا ماورد من قصره صلى الله عليه وسلم للصلاة فى أكثر من ذلك . والسفر الذى يباح فيه القصر يباح فيه الفطر .

وزعم بعض العلماء أن من سافر فى أثناء اليوم لايجوز له الإفطار إلا فى اليوم الثانى بتعليل لفظى ، ولكن جرت السنة على خلاف ذلك ، فقد روى البخارى وغيره عن ابن عباس قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة والناس مختلفون ، فصائم ومفطر ، فلما استوى على راحلته دعا بإناء من لبن أو ماء فوضعه على راحته أو على راحلته ، ثم نظر إلى الناس ، فقال المفطرون للصوام : أفطروا) .

وفى حديث أنس وأبى بصرة النص على الأمر بذلك ، وورد غير هذا فى الأحاديث التى تدل على جواز الإفطار أو أفضليته لمن سافر ولو كان صائماً ناوياً للصيام من ليله .

أما الظاهريون فذهبوا إلى عدم إجزاء الصوم للمريض والمسافر وأنه يقضيه أخذاً بقوله تعالى : (فعدة من أيام أخر) دون مراعاة الحذف والتقدير الذى راعاه جمهور المفسرين . وذهب بعض الظاهرية إلى عدم القضاء مع الصيام . وذهب بعضهم إلى وجوب الإفطار على المريض والمسافر .

وقد نصت السنة العملية بخلاف ذلك ، والعجب أن كلامهم يقتضى تضييق الله على المريض والمسافر وتشديده عليهما بما لم يشدد على غيرهما . وهذا عكس لمقصود الله من السر فى التشريع ، وسببه الجمود تارة وتقليد الجامدين تارة ـــ روى الإمام مسلم والترمذي وصححه النسائي وكلهم رووا عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى مكة عام الفتح فصام حتى بلغ كراع الغيم وصام الناس معه ، فقيل إن الناس

قد شق عليهم الصيام وأنهم ينظرون فيما فعلت فدعا بقدح من ماء بعد العصر فشرب والناس ينظرون إليه ، فأفطر بعضهم وصام بعضهم ، فبلغه أن ناساً صاموا ، فقال : أولئك العصاة) .

وروى الإمام أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى كلهم عن جابر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فرأى زحاماً ورجلا قد ظلل عليه ، فقال : ماهذا ؟ فقالوا : صائم ، فقال : « ليس من البر الصيام فى السفر » . وقد روى هذا الحديث من طرق متعددة . صحيحة .

ومن أراد المزيد من النصوص فعليه بجامع الأصول ونحوه يجد عشرات الأحاديث الدالة على الإفطار فى الصيام ، وأنه رخصة ، وأنه أفضل أيضاً .

وقوله سبحانه : (وعلى الذين يطيقونه فدية اطعام مسكين) اعلم أن الإمام ابن جرير رحمه الله ذكر فى معنى هذه الجملة من الآيات ثلاثة وجوه :

(أحدهما) أنالأمر كان فى البداية على التخيير بين الصيام والإطعام ، ثم نسخ بقوله تعالى: (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) . وأورد فى ذلك بضعة عشر أثراً عن معاذ بن جبل وعمرو بن مرة وعلقمة والحسن البصرى وابن عمرو الشعبي وابن شهاب وسلمة بن الأكوع وعبيدة والضحاك .

ثم أتى رحمه الله بقولين متماثلين أو متقاربين فى المعنى وهما أن هذه الآية أو هذه الجملة فى الآية محكمةلم ينسخ فيها شىء وأنها تعنى الشيخ والعجوز وكل من يصعب عليه الصوم أنه يفدى طعام مسكين لكل يوم . وأورد بضعة عشر أثراً عن ابن عباس وعكرمة وقتادة والربيع والسدى وابن عباس أيضاً فى الحامل والمرضع أورد عنه وعن السدى عدة آثار ثم عن ابن عمر فيهما وعن سعيد بن المسيب أورد ابن جرير عن هؤلاء فى هؤلاء ثلاثة عشر أثراً .

ثم أورد القول الثالث أو الرابع فى الترتيب وهو الذى على قراءة ابن

عباس (وعلى الذين يطوقونه) أى يطوقونه وهم لايطيقونه كالشيخ الكبير العجوز والحامل والمرضع فمن يكلف بالصوم وهو يجهده فأتى بثمانية وعشرين أثراً تؤيد معنى هذه القراءة ، منها أربعة عشر أثراً عن ابن عباس سنذكر بعضها للاختصار ، وأربعة آثار عن عكرمة ، وواحد عن عائشة رضى رضى الله عنها ، وواحد عن سعيد بن جبير ، وأثرين عن عطاء ، وأثرين عن مجاهد ، وأثرين عن على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، وأثر عن أبى طاووس ، وأثر عن الضحاك .

ثم رجح القول بالنسخ وزعم أن قراءة (وعلى الذين يطوقونه) مخالفة لمصاحف المسلمين وأنها تعارض ماثبت وقامت به الحجة أنه من عند الله حتى غفر الله له ولجميع العاملين المصلحين فى دين الله ، وليست هذه القراءة على مازعمه أنها من الآراء والظنون ، بل هى قراءة مشهورة ، وإن كانت شاذة بالنسبة إلى تواترها ، لكن معناها صحيح يفسر حقيقة هذه الجملة من الآية ويحميها من دعوى النسخ وليس فيها مايعترض أو يعارض هذه القراءة المشهورة أبداً ، بل فيها مايفسرها حسب اللغة الفصحى التى جاء بها القرآن ، وهى بحمد الله قراءة عائشة أم المؤمنين وابن عباس رضى الله عنهما ، ومعناها يفسر المقصود من الآية ، وذلك أن الطاقة معناها غاية الجهد، فمن أجهده الصيام وأنقض ظهره لكبر سنه وضعف حاله فله الرخصة مع الفدية ويشهد لهذا المعنى أولا نص القراءة (يطوقونه) يعنى يطوقونه بالتكليف وهم لايطيقونه .

والشاهد التالى هو المزدوج من العقل واللغة ، فإنك أيها الإنسان لايجوز لك أن تقول (إنى أطيق الرطل أو الرطلين ، ولكن تقول : أطيق حمل القنطار أو القنطارين — وتقول : أطيق كيس السكر أو كيس الأرز ولا تقول : أطيق كيس الحلاوة ، فينتقدك السامع ، لأن الطاقة فى اللغة

العربية هى غاية الجهد . فتفسير الآية يجب أن لايخرج عن هذا المعنى ، لأن دعوى النسخ صعب إثباتها ، فيكون للمبطلين مجال للتلاعب . وعليك أيها المسلم الابتعاد عن همزات الشياطين المحبين للانحلال والإلحاد والبطالة وأن تسلك الحزم بالتزام طاعة الله فى الصيام .

ومع أن القراءة الشاذة يجوز العمل بمشهورها فنحن لم نعتمدها على الإطلاق ، بل استشهدنا بها على حقيقة المعنى المطلوب من الآية (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) يعنى يتحملونه بكلفة ومشقة، كالشيوخ الضعفاء والزمنى الذين لايرجى برؤهم ونحوهم ممن يشق عليهم الصيام لتكليفهم بالأعمال الشاقة سخرياً لاخيرة لهم ولاراحة .

قال الراغب : الطاقة اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة ، وذلك تشبيه بالطوق المحيط بالشىء . فقوله (ولاتحملنا مالا طاقة لنا به) أى مايصعب علينا مزاولته وليس معناه (ولا تحملنا مالا قدرة لنا به) .

وبعض المفسرين قدر حرف نفى فقال (وعلى الذين لا يطيقونه فدية) — ليوافق مذهبه . والآية موافقة له من غير حاجة إلى جعل الإثبات نفياً كما أوضحنا معناها من غير تكلف تقدير نفى . وقال بعضهم : إن الهمزة فى الإطاقة للسلب ، فمعناها الذين لايطيقونه من غير تقدير حرف النفى .

قال صاحب المنار عن هذا — وهو قول منقول معقول ، ويظهر بإرادة سلب الطاقة ، أى القوة به لا قبله . والقاعدة أنه لا يحكم بالنسخ إذا أمكن حمل القول على الإحكام .

(قلت) والمعنى ظاهر الوضوح بلا إشكال والحمد لله ، فلا يقول بالنسخ إلا المولع بالقول بتكثير الناسخ والمنسوخ ومن قلده من الناقلين بلا إمعان .

وقال ابن جرير : حدثنا هناد قال حدثنا على بن مسهر عن عاصم عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقرأ (وعلى الذين يطوقونه فدية طعام مسكين) قال : فكان يقول (هى للناس اليوم قائمة) . وكذا ساق أثراً رقمه ٢٧٦٧ بسنده عن ابن عباس، والأثر المرقم٢٧٦٨ بسنده عنهأنه كان يقرؤها هكذا، ويقول هو الشيخ الكبير يفطر ويطعم عنه . وكذا ساق الأثر بعده عن عكرمة، ومثله الأثر المرقم ٢٧٧١ عن عكرمة قال : الذين يطيقونه يصومونه ولكن الذين يطوقونه يعجزون عنه) . وقبله أثراً عن سعيد بن جبير أنه قرأ : (وعلى الذين يطوّقونه) . وبعده الأثر المرقم ٢٧٧٢ أن عائشة كانت تقرأ (يطوقونه) . ثم الأثر ٧٣ . . أن عطاءاً كان يقرؤها (يطوقونه) . قال ابن جريج وكان مجاهد يقرؤها كذلك . ثم الأثر ٧٤ . . عن عكرمة ، قال قال ابن عباس : هوالشيخ الكبير . والأثر ٧٥ . . مسنداً إلى سعيد بن جبير عن ابن عباس « وعلى الذين يطوقونه » . قال (يتجشمونه يتكلفونه) . والأثر ٧٦ . . عنه . قال الشيخ الكبير الذى لايطيق فيفطر ويطعم كل يوم مسكيناً . والأثر ٧٧ .. مسنداً عن مجاهد وعطاء عنابن عباس فى قوله الله: (وعلى الذين يطيقونه) ، قال يكلفونه : فدية طعام مسكين واحد . قال فهذه آية منسوخة لايرخص فيها إلا للكبير الذى لايطيق الصيام أو مريض يعلم أنه لايشفى) .

قلت: ومعنى كلامه هذا كالسابق . ثم ساق ابن جرير الأثر ٢٧٧٨ مسنداً إلى عطاء عن ابن عباس ، قال (الذين يطيقونه) يتكلفونه : فدية طعام مسكين واحد ، ولم يرخص هذا إلا للشيخ الذى لايطيق الصوم أو المريض الذى يعلم أنه لايشفى — هذا عن مجاهد . ثم ساق الأثر ٧٩ . مسنداً عن مجاهد عن ابن عباس أنه كان يقول : ليست بمنسوخة .

ثم ساق الأثر (٢٧٨٠) عن ابن عباس فى قوله (وعلى الذين يطيقونه) فدية طعام مسكين) يقول : من لم يطق الصوم إلا على جهد فله أن يفطر

ويطعم كل يوم مسكيناً ، والحامل والمرضع والشيخ الكبير والذى به سقم دائم) وكذا ساق الأثر المرقم ٨١ و ٨٣ عن ابن عباس أيضاً . ثم الأثر (٢٧٨٤) مسنداً إلى على رضى الله عنه فى قوله (وعلى الذين يطيقونه) فدية طعام مسكين) ، قال : الشيخ الكبير الذى لايستطيع الصوم يفطر ويطعم مكان كل يوم مسكيناً) .

ثم الأثر ٨٥ عن ابن عباس قال : (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) (قال : هم الذين يتكلفونه ولا يطيقونه : الشيخ والشيخة) إلى الأثر ٧٩ عن ابن جريج . قال قلت لعطاء : ماقوله (وعلى الذين يطيقونه) قال : بلغنا أن الكبير إذا لم يستطع الصوم يفتدى من كل يوم بمسكين : قلت : الكبير الذى لايستطيع الصوم أو الذى لايستطيعه إلا بالجهد ؟ قال : بل الكبير الذى لايستطيعه بجهد ولا بشىء فأما من استطاع بجهد فليصمه ولا عذر له فى تركه) .

وباقى الآثار كلها مجمعةعلى أنها فى الشيخ الكبير العاجز عن الصيام، وكذلك الآثار الثلاثة عشر التى أتى بها ابن جرير قبلها تفيد عن هذه الآية بأنها حكماً خاصاً للشيخ الكبير والعجوز ، فلاحاجة لدعوى النسخ مادام المعنى ظاهر ولم يحصل تعارض بين مجمل الآية .

ويبدو من أكثر الآثار المروية عن الصحابة والتابعين أن الخلاف لفظى لاجوهرى ، وادعاء ابن جرير رحمه الله النسخ بزعمه أن (الهاء) فى قوله (وعلى الذين يطيقونه) من ذكر الصيام ، ومعناه : وعلى الذين يطيقون الصيام فدية طعام مسكين ، فإذا كان كذلك . . إلخ ، لا معنى لزعم النسخ ماداموا مجمعين على أن القادر لايجوز له الإفطار بالافتداء ، لأن الشأن فى معنى الإطاقة وأنها غاية الجهد الشاقة ، خصوصاً على القول بأن من نام قبل الإفطار

وجب عليه الصيام حتى الليلة القابلة فهذا من المشقة بمكان عظيم . فالآية واضح معناها وليس بينها وبين مابعدها تعارض أبداً حتى يصار إلى النسخ ، وليلاحظ أن الله لم يقل (وعلى الذين يستطيعونه) حتى تسوغ دعوى النسخ ، بل أتى باللفظ الذى يفهم منه عدم الاستطاعة حيث قال (وعلى الذين يطيقونه) أى يتكلفونه ويتجشمونه بجهد وإجهاد ، كما فسروه بمدلول اللغة عرفاً وعقلا . والله أعلم .

هذا وقد روى البخارى فى كتاب التفسير من صحيحه حديثاً فى التخيير بادئ الأمر ثم أسند عن ابن عمر أن الآية منسوخة ، ولكنه روى عن ابن عباس من طريق عطاء خلاف ذلك عن ابن عباس أنها ليست منسوخة ، وإذا اضطربت الأحاديث وجب الجمع بينهما ، والجمع بينهما واضح بما قلناه سابقاً ونقلناه عن إمام التأويل وتؤيده القراءة (يطوقونه) مما يتضح به الأمر ويزول الإشكال ولا ينفتح به للملاحدة والمشككين مقال .

قال الرازى : أول الآية دل على إيجاب الصوم وهو قوله (كتب عليكم الصيام... أياماً معدودات)، ثم بين أحوال المعذورين ، ولما كان المعذورون على قسمين : منهم من لايطيق الصوم أصلا ، ومنهم من يطيقه مع المشقة والشدة . فالله تعالى ذكر حكم القسم الأول ثم أردفه بحكم القسم الثانى .

(الحجة الثانية) فى تقرير هذا القول أنه لايقال فى العرف للقادر القوى أنه يطيق هذا الفعل ، لأن هذا اللفظ لايستعمل إلا فى حقه .

(الحجة الثالثة) أن على أقوالكم لابد من إيقاع النسخ فى هذه الآية ، وعلى قولنا لا يجب ، ومعلوم أن النسخ كلما كان أقل كان أولى ، فكان المصير إلى إثبات النسخ من غير أن يكون فى اللفظ ما يدل عليه غير جائز .

(الحجة الرابعة) أن القائلين بأن هذه الآية منسوخة اتفقوا على أن نسخها آية شهود الشهر ، وذلك غير جائز ، لأنه تعالى قال فى آخر تلك

الآية (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)[1]. ولو كانت الآية ناسخة لها لما كان قوله (يريد الله بكم اليسر ...) لائقاً بهذا الموضع ، لأن هذا التقدير أوجب الصوم على سبيل التضييق ورفع وجوبه على سبيل التخيير ، فكان ذلك رفعاً لليسر وإثباتاً للعسر . فكيف يليق به أن يقول (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ؟ ا هـ .

وقد قدمنا القول بأنه لاداعى للقول بالنسخ ولا مساغ له ، بل ولا يصح له وإنما يجر إلى الشغب فى القرآن وإعطاء فرصة للمبطلين بذلك . وقد أزال الرازى رحمه الله شبهة دعوى النسخ وأبطلها من معنى الآية الكريمة .

وقد قال قبل هذا فيما يتعلق بمعنى الآية مانصه :

وتقريره من وجهين : (أحدهما) أن الوسع فوق الطاقة ، فالوسع اسم لمن كان قادراً على الشىء على وجه السهولة . أما الطاقة فهو اسم لمن كان قادراً على الشىء مع الشدة والمشقة : فقوله (وعلى الذين يطيقونه) أى وعلى الذين يقدرون على الصوم مع الشدة والمشقة .

(الوجه الثانى) فى تقرير هذا القول القراءة الشاذة (وعلى الذين يطوقونه) فإن معناه : وعلى الذين يجسمونه ويكلفونه .

ومعلوم أن هذا لايصح إلا فى حق من قدر على الشىء مع ضرب من المشقة . . إلى أن ذكر قول الأصم المختار . والوجوه التى احتجوا على صحته بها : أحدها غاية المرض . والثانى والثالث ماقدمناه . ثم ذكر ملاحظة القاضى رحمه الله على الأصح بالعطف فى الآية ، وهو يقتضى المغايرة . وأجاب عنها بقوله (إنا بينا أن المراد من المسافر والمريض المذكورين فى الآية هما اللذان لايمكنهما الصوم البتة ، والمراد من قوله (وعلى الذين يطيقونه) المسافر

(١) سورة البقرة (١٨٥).

والمريض اللذان يمكنهما الصوم ، فكانت المغايرة حاصلة ، فثبت بما بينا أن القول الذى اختاره الأصم ليس بضعيف . ا هـ .

وقوله سبحانه (فدية طعام مسكين) الفدية : هى مايفدى الإنسان بها نفسه ويقيها من الرق من مال يبذله أو يقيها من الإثم بكفارة يتصدق بها بدلا عن العبادة المفروضة أو الجناية فيها ، وهى مقدرة عن المفطر بطعام مسكين قدره ربع صاع من الحنطة أو نصف صاع من غيرها عند الحنابلة وبعض العلماء ، وعند غيرهم نصف صاع حنطة أو صاع من غيرها . وقد أفطر أنس بن مالك رضى الله عنه عاماً أو عامين فى آخر عمره وأطعم عن كل يوم مسكيناً خبزاً ولحماً ، كما رواه أبو يعلى الموصلى وعبد بن حميد فى مسنديهما والبخارى تعليقاً . وقال بعضهم : يطعم المفطر مسكيناً من القوت الذى يتقوته ، والأولى أن يراعى فيه الطعام المألوف كله فى رمضان ليكون المطعم منفقاً مما يحبه . وقرأ نافع وأهل المدينة (فدية) بلا تنوين (طعام مساكين) والأولى هى المشهورة ..

وقوله سبحانه : (فمن تطوع خيراً فهو خير له)[1] فيه تعميم لفضيلة التطوع دون تخصيص لها بمعنى من معانى الخير ، فيكون من زاد فى الفدية على طعام مسكين بأن أعطاه أكثر من طعام يوم ، فزاده طعام أيام كثيرة ، أو أطعم عدة مساكين ، أوجمع بين الصوم الذى يرهقه والإطعام ، فهو خير له ، قد أحسن به إلى نفسه ، وتبعد فضيلة الجمع بين الإطعام والصيام المرهق ، لأن فيه رفض لرخصة الله وتيسيره .

وقوله تعالى : (وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون)[1] ترغيب من الله للمؤمنين بتحمل مشقة الصيام وصعوبته إيثاراً له على الإطعام ، وإن

---

(١) سورة البقرة، آية (١٨٤).

كان فى الإطعام منفعة لصائم آخر يتقوى بها على تلك العبادة العظيمة ، لكن لما كانت فوائد الصيام فوائد حسية ومعنوية عظيمة لها شأن كبير فى بناء المجتمع المسلم ، نبه الله على خيرية الصيام وأفضليته على الإطعام :

فالصيام شرعه الله إيقاظاً للروح ، وتصحيحاً للجسد ، وتقوية للعزيمة وتعويداً على الصبر ، وإيقاداً لمشاعر الرحمة،وتدريباً على كمال التسليم لله والانقياد لأوامره ورعاية أمانته فيما كلفنا به . ففيه كمال العبودية لله بغاية التسليم ، وهذه الحكمة هى القدر المشترك فى كل عبادة ، والغاية السامية من كل فريضة، ولن يكون الإنسان عبداً لله إلا بتحقيقها . وفى الصوم يظهر ذلك أزود من غيره .

فعلى المسلمين أن ينتبهوا لأسرار الصيام ويستغلوا مدرسته ، ليجنوا ثماره الصحيحة ، ويستمدوا منه قوة الروح وروح القوة ، فيكون نهارهم نشاطاً وإنتاجاً وإتقاناً ، وليلهم حباً وتعاوناً وتهجداً وتلاوة لوحى ربهم ، ومحاسبة لأنفسهم على ضوئه ، ليخرجوا من هذه المدرسة ناجحين ، وأن لايغفلوا ويجبنوا فى نهارهم ثم يعملوا فى ليلهم ماهو مناف لحكمة الصوم من التنافس فى أصناف المأكولات واللهو واللعب ، فإن الله جعل الصيام للقلب والروح فلا يجوز لنا أن نجعله للبطن والمعدة . والله جعله للحلم والصبر ، فلا يجوز أن نجعله للطيش والغضب : والله جعله لتقوية العزائم فلا يجوز أن نجعله خوراً أو لعباً . والله جعله لنا حمية وعبرة فلا يجوز لنا أن نجعله موسماً للطعام ووسيلة للتخمة . فكما أن الصيام فيه تقوية للروح وصحة للبدن فإن فيه تقوية للبدن إذا أحسن استعماله ، فإن كثيراً من أمراض الناس ناشئة من بطونهم التى يتخمونها بشتى المشتهيات دون تفريق ، فإن البطن مستنقع البلاء ، والمعدة بيت الداء ، كما أجمع عليه الأطباء . وقد قال صلى الله عليه وسلم : (ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه) .

ومن المقرر المعترف به أن الحمية رأس الدواء وهي الامتناع عن كثرة الأكل ولا يوجد فرصة كفرصة الصوم تستريح فيها المعدة ويتخلص الجسم من الفضلات الضارة .

وقد قرر علماء الطب الحديث أن الصوم يفيد الجسم كثيراً فى بعض الأمراض التى تصيبه وخصوصاً أمراض الجهاز الهضمى ، كالتهاب المعدة وبعض أوجاع الأمعاء وأمراض الحويصلة المرارية ومانتج عن زيادة الوزن وبعض أمراض القلب . ففى الصوم نفع من ذلك بشرط أن لايكون الصائم منهوماً على الأكل فى الليل ، وما أضاع فوائد الصوم الصحيحة إلا جعل الناس رمضان موسماً كبيراً للأكل والجشع بأصناف الطعام خلال ساعات الليل .

وقد نشرت إحدى المجلات أن ثلاثمائة شخص قد برئوا من البول السكرى بعلاج الصوم . ولا يزال الله يرينا عجائب حكمته وصدق ما أنزله على رسوله عليه الصلاة والسلام فى وحيه المبين وأنه رحمن رحيم لايشرع لنا ولا يوجب علينا إلا مافيه الخير والمنفعة والحكمة العاجلة والآيات، ولهذا قال : (إن كنتم تعلمون) .

رمضـــان والقـــرآن

قال تعالى : (شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِى أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وبَيِّنَاتٍ مِّنَ ٱلْهُدَى وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) [١] .

إشادة بهذا الشهر الكريم ، وأنه كما جعله الله شهر الهداية العملية التهذيبية ، فإنه أنزل فيه الهداية العلمية النظرية العامة الجامعة لخلال الخير

(١) سورة البقرة، آية (١٨٥).

كلها ، والموضحة لأسباب السعادة فى جميع نواحى الحياة ، والموصلة إلى أعلى مراتب الكمال . إن الله لما قضى وجعل سعادة الشعوب وشرفها خير من حياتها تعهدها بإرسال الرسل وإنزال الكتب التي توضح لهم المعالم الموصلة إلى ذلك ، فمن قصدها واتجه إليها ظفر بها ، ومن انحرف وابتغى غير مارسمه الله ضلت به بنيات الطريق ، فتخبط فى أنواع الغواية التى يشقى بها هو ومن تبعه وسار فى فلكه بصنوف الأنانية والأغراض الدنيئة المفضية إلى الحروب الباردة والكاوية . فجميع مايتعارفه الناس فى الدنيا من أنواع الخير هو من بقايا الوحى والنبوات . وجميع ماحدث ويحدث من أنواع المفاسد والشرور هو من الانحراف عن ذلك والتكذيب به . لا مراء فى هذا مهما غالط المغالطون فليس فى اتباع الأهواء والأذواق خير ، لأن الله وصف الإنسان بالجهل والظلم والهلع بجميع أنواع ذلك . وهو تعالى أعلم به لأنه الذى خلقه وطبعه على ذلك (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) .

وقد قضت مشيئته أن يختم الرسالات والوحى بهدايته الأخيرة العامة الكاملة الشاملة ، وأن يشرف العرب بها ويجعل سائر الناس تبعاً لهم وعولا عليهم، لتتعلق بهم قلوب الصادقين المخلصين، ويكشف المجرم الخبيث من اليهود وأعوانهم ، حتى يذهب الله غيظهم بجهاد من صدق من حزبه ، فبعث محمداً صلى الله عليه وسلم من صميم العرب وفى قلب بلادهم وأنزل عليه هذا الوحى العظيم الخالد المحفوظ بإذنه جل وعلا مابقى الدهر ، حاملا ماشرعه من دينه الحنيف على جميع الرسل والأمم من نوح إلى عهده صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى : (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصى به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتفرقوا فيه كبر على المشركين ماتدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب) .

فى هذه الآية كما فى غيرها غاية البيان أن دين الله واحد هو الإسلام

جاءت به كل الرسل من نوح إلى محمد صلى الله عليه وسلم وأن من زعم غيره ، فهو مفتر على الله وجزاؤه معروف سنوضحه بحول الله،وأنه كبر على المشركين وصعب عليهم أن يدعوهم إليه العرب بعد ما اتبعوا أهواءهم وأخفوا منه كثيراً وحرفوه عن مواضعه . والمشرك هو كل من جعل لنفسه الخيرة فى أمر من الأمور على خلاف وحى الله ، سواء ادعى اليهودية أو النصرانية أو المجوسية أو البوذية أو الشيوعية ونحوها من كل مذهب مادي أو مبدأ قومي يتطاول أهله به على سلطان الله ويعطلونه عن حكمه بعدم امتثال أمره وطرح شريعته ، فإن شرك التعطيل أعظم من شرك التشبيه . فالشرك ينحصر مدلوله باتباع الهوى ورفض الحق والركون إلى التخرص مما هو انتقاص لجناب الله واستهانة بعزته وإلحاد فى أسمائه . ولذا قال تعالى : ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾[1] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾[2] . وقال : ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾[3] فالقرآن يفضح المشركين ويكشف سوءاتهم وينادى عليهم بالجهل والضلال لهذا كبر عليهم أمر العرب وصعب . فالمشرك عدو للعربى الحامل للقرآن والداعى بدعوته إلى الله حتى ولو كان عربياً مثله .

نعم . إنه يعادى من جعل الآلهة إلهاً واحداً ، لأن نفسه تجنح إلى آلهة الهوى المتنوعة ، إله الأطماع وإله الأغراض النفسية وإله الشهوات وإله الأنانية والانتهازية التى لاتقف عند حد ، وإله المبادئ الحزبية والمذاهب المادية التى يتأكل بها المتأكلون وينال بها المغرضون شتى المناصب والألقاب وأنواع المديح والتقديس . لهذا كانوا حرباً على الرسل وأتباعهم الحاملين لواءهم إلى

---

(١) سورة لقمان، آية (١٣).
(٢) سورة الأنعام، آية (١١٦).
(٣) سورة النجم، آية (٢٣).

يوم القيامة . ولهذا كانوا أعداء للقرآن ، يصمون عنه آذانهم ويحولون دونه الناس ويصدونهم عن استماعه ويتوعدون اتباعه .

فعلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم أن ينتبهوا لمقاصد أعدائهم كيلا ينجرفوا فى تيارهم . وعلى كل من يعتز بعروبته أن يلتفت التفاتة صحيحة إلى القرآن ويجعل من عروبته أكبر حافز على أخذه بقوة ، وذلك بحسن تدبره وتلقيه أولا ، ثم بتوزيع هدايته ثانياً ، وأن لا يفرط فى هذه المكرمة ولايسترخص نفسه بالالتفات إلى غيرها من أوضاع أعدائه الذين تسيرهم الماسونية اليهودية العالمية اليوم باسم القوميات والوطنيات والمذاهب المادية ، فيكون كمن استبدل الدر النفيس والذهب الإبريز بالخزف والنحاس .

إن الله شرف العرب أكبر تشريف وأكرمهم بأعظم مكرمة فى مثل هذا الشهر مما يقرب من أربعة عشر قرناً بإنزال هذا القرآن العظيم بلغتهم العربية الكريمة مختاراً لها أن تكون هى اللغة الرسمية فى جميع بقاع الأرض .

ولقد انتشرت لغتهم فى أغلب المعمورة وقت أسلافهم الذين شكروا نعمة الله بالعمل ورعوا أمانته فى حمل رسالته حق رعايتها . وما أجدرنا اليوم بعرفان قيمتنا بين الأمم ، وذلك بتوزيع الوحى المحمدى الذى ورثناه لتنتشر لغتنا أكثر من قبل وأوسع ، ولنكون أساتذة العالم وحملة النور والصلاح والهداية والسلام ومصدرى المثل العليا والمبادئ الصحيحة للعالم . فنحن أمة التصدير كما أوجب الله علينا ذلك ومن لم يقم بالتصدير انعكس أمره فكان مستورداً .

ولا يليق بهذه الأمة أن تنحط من مقام العلو والتصدير إلى هاوية السفل والاستيراد ههنا، هذا لا يرضى به إلا الصعلوك الذى جعله الله صفر اليدين من كل هدى ورسالة ولكن هذه المهمة الجليلة التى هى توزيع الهداية والقيام بتطهير الأرض من الكفر والظلم تتطلب منا حسن التقبل أولا لما أنزل الله

علينا وأن نقف الموقف المشرف من القرآن ونعطيه حقه الذى أوجبه الله بل نعطيه حقوقه الكاملة وهي ــ أن نفرح به أعظم فرحة ، إذ يجب أن نفرح به فرحة لايشبهها أى فرحة بأى شيء من متع الدنيا ولذائذها ، لأن من كانت فرحته بمتع الدنيا ومكاسبها أعظم من فرحته بهذا القرآن فهو مريض القلب ، ناقص التفكير ، لاسيما إذا كان عربياً مسلماً ، لأن كل شيء فى الدنيا يزول ويحول وينتقل من المرء إلى عدوه، وبعض النعم تكون مفسدة أو مهلكة ، ولكن نعمة القرآن هى نعمة الوحى والرسالة الخالدة .

نعمة الهداية الأبدية العامة فى كل شيء، ونعمة العزة والقيادة والسيادة العالمية لمن أحسن التصرف فيها وزحف بها إلى الأمام ، كما فعل أسلافنا الذين تخرجوا من مدرسة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهى نعمة لايعدلها نعمة ، وهى منحة لايعدلها منحة .

هى نعمة فيها الشفاء الصحيح للصدور من مرض الشبهات ومرض الشهوات . وهى نعمة تحصل بها المعرفة الصحيحة للحقائق ويتميز بها الخبيث من الطيب والصادق من المنافق . وهى نعمة يحصل بها الوحدة الصحيحة التامة العامة لجميع الأمة ، وبعدم التزامها تحصل الفرقة والشقاق البعيد .

وهى نعمة يحصل بها الأمن الصحيح والعيشة الراضية السليمة فى الدنيا والآخرة ، وبعدم التزامها وعدم التمسك بها يحصل الخوف والتناحر والحروب والإرهاصات المتنوعة . ولذا قال تعالى : (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ، قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون)[1] .

وفائدة الفرحة الصحيحة المطلوبة منا بهذا الوحى العزيز هى القيام بحقه

---

(١) سورة يونس، آية (٥٧).

الثاني وهو الانشغال به عما سواه من سائر الكتب الأخرى على اختلاف أنواعها ، خصوصاً الكتب التي لعبت بها أيدي اليهود كالتوراة والأناجيل ومزامير داوود وبعض ما ينسب إلى الأنبياء والصالحين ، فإن اليهود لعبوا ببعض الكتب ابتكاراً وابتداعاً وببعضها تحريفاً وتلبيساً .

فمن واجب المسلم عامة والعربى خاصة أن يقوده الفرح بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم إلى الانشغال به عن غيره ، والاستغناء به عما سواه ، كما ورد عن البخارى وغيره فى تفسير معنى الحديث : (من لم يستغن بالقرآن فليس منا) حملوا التغنى على الاستغناء ، وأورده البخارى تعليقاً ، وهو يحتمل الأمرين : تحسين الصوت به مع التحزن الناشئ عن الخوف والتعظيم والاستغناء به ، لأن الله وصفه أنه هدى وبيان (بحذف المتعلق) ليشمل جمع أنواع الهداية والبيان فى جميع نواحى الحياة وميادين العلم ، كما قال تعالى : (وأنزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء) . وهذا نص صريح فى عموم تبيانه لجميع الأشياء من جهة أصولها وضوابطها والقواعد التى تنشأ منها الفروع وتنبنى عليها ، لأن جزئيات الفروع تتجدد ، ولكن الله جعل فى وحيه لكل شيء أصلا ومرجعاً يعرف فيه حكمه من حل وحرمة وصحة وبطلان وطيب وخبث وندب وكراهة ، فلا يحدث حادث أو يتجدد نبات إلا ويعرف حكمه من تلك الأصول والضوابط .

وقد وصف الله القرآن بأنه مبارك وأنه رحمة فمن رغب عنه إلى غيره فقد تنكب عن البركة وأخرج نفسه من الرحمة ، مهما زعم فإن مزاعمه كلها مغالطة . والله حصر الهداية العامة والحق الصحيح فيه وحصر الضلال فيما سواه).

نعم إن الله حصر الهداية العامة والحق الصحيح لجميع شئون الحياة فى وحيه المبارك ، وحصر الضلال فيما سواه . فكل من طلب الهداية بأى شأن من شئون الحياة فى غير وحى الله فقد زاغ عن الهداية إلى الضلال . وقد

وصف وحيه بأن نور ، فمن حاد عنه لابد أن يتخبط فى الظلمات وأن يكون أمره مريجاً فاسداً . ومن تنكب عن وحى الله زاعماً أنه فى عصر النور أو فى عصر لايحتاج فيه إلى القرآن أو لايصلح تطبيقه فيه ، فهذا قد حاد عن الصراط المستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات ومافى الأرض ، وسلك طرق أهل الجحيم ، واستهوته شياطين الإنس فهم دعاة على أبواب جهنم ، من استجاب إليهم قذفوه فيها ، كما أخبرنا عنهم الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم فى حديث حذيفة المشهور .

وأعظم من هذا النوع ضلالة من زعم أن الإنسان فى هذا العصر قد نضج عقله وأصبح لايحتاج إلى التقيد بنصوص الدين أو الرجوع إليها وأنه يستوحى الهداية من ضميره وتفكيره ، فهذا والعياذ بالله مشاق لله ولرسوله ، وكفره يزيد على كفر المعاندين الذين قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم : (ائت بقرآن غير هذا أو بدله) ، فعلمه الله أن يرد عليهم بقوله : (ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا مايوحى إلى ، إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل لوشاء الله ماتلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون)[1] .

فهذا موقف سيد الخلق من أسلاف أهل هذه الفكرة وأمثالها ، والله حصر الهداية من طريق الوحى ، والضلال من طريق النفس فقال : (قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربي إنه سميع قريب)[2] . فأخبر أن نبيه عليه الصلاة والسلام لا يهتدي إلا من طريق الوحي .

وإذا كان صفوة الخلق مقصورة هدايته على مايوحى الله إليه ، فكيف بصعاليك أهل هذا الزمان الذين تتناقض نظرياتهم وتكذب اكتشافاتهم بعضها

---

(١) سورة يونس، آية (١٥).

(٢) سورة سبأ، آية (٥٠).

بعضاً وتلعب الدجاجلة ومحترفوا السياسة الموسمية بعواطفهم وعلى أذقانهم ؟ كما شاهدنا كل ذلك عياناً وكما قص التاريخ علينا نبأ من قبلهم من قريب أو بعيد ، حيث لم نجد عقولاً استنارت بغير وحي الله ، ولا حصل زحف صحيح مقدس سليم نافع إلا على ضوء ما أنزل الله .

فياويح من جعل نفسه نداً من دون الله ، أو زعم الاستغناء عن وحى الله. هذا جريمته أعظم من جريمة من قال (سأنزل مثل ما أنزل الله) . فمن زعم القدرة على تسيير أموره أو السلوك فى الطريق الذى يختاره لنفسه دون الرجوع إلى وحى الله وحكمه فيما أنزل ، وأنه فى حالة يستغنى بها عن ذلك ، فقد زاد فى كفره وظلمه على أولئك الذين حكم الله عليه فى هذه الآية بأنه من أعظم أنواع الظلمة بقوله (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله)[1].

والظلم فى اللغة : النقص من الشيء . قال تعالى : (كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً)[2]. وقال : (ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً) أى لاينقص من أجر أحد من عمله الطيب مهما كان حقيراً . كما قال تعالى : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين)[3].

وإذا كان الظلم نقص الشيء مهما كان فلا ينقص أحد حق أحد إلا وهو منتقص لجنابه أو مستعل عليه أو مستهين بمغبة عاقبته . هذا فى معاملة البشر للبشر فكيف بمعاملة الله جل جلاله ؟ فلا ينقص أحد من حق الله الذى أوجب

---

(١) سورة الأنعام، آية (٩٣).
(٢) سورة الكهف، آية (٣٣).
(٣) سورة الأنبياء، آية (٤٧).

عليه أداؤه من أركان الإسلام وشعب الإيمان إلا وهو مستهين بعزته ، غافل عن آياته ، ولا ينتقص وحيه المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم إلا منتقص لجنابه ، مستهين بعزته ، غير معترف بعلمه وحكمته ، أو منكر له بالكلية ، أو جاحد لآياته ، غير مؤمن بلقائه ووعده ووعيده .

هذه أمور لا بد منها مهما حاول الملحد التملص عنها ، فإن المؤمن بالشيء لابد أن يكون لإيمانه آثار يتأثر بها فى اتجاهه نحو هذا الشيء، بل فى أفكاره وسلوكه ، إذ لابد من تصور قيمة ما آمن به وتصور مفعوله ومدى نفعه أو ضرره مهما كان فكيف بالخلاق العظيم مبدع الأكوان وقيوم السموات والأرض .

فمن كان مؤمناً بهحقاً ولم يعتبره خرافة ، فإنه لابد أن يتصور مدى عظمته وعلمه وقدرته وإحاطته ورحمته وفضله وحكمته ، ويتيقن أنه قاطن فى أرضه ، ساكن فى ملكه، متقلب فى نعمته ، راتع فى فضله، مغمور بإحسانه وجوده. ويتيقن أنه مخلوق لحكمة ، لم يخلق عبثاً ، تعالى الله عن العبث الذى يترفع عنه الشريف من الناس . ثم يستشعر دائماً أن الذى خلقه مطلع عليه ، رقيب على حركاته وسكناته ، وأنه هيأه لأمر وفق حكمته، كما يهيىء الصانع أى آلة يصنعها لحرفة ما وفق صلاحيتها للقيام بمهمتها (ولله المثل الأعلى) والله أعلى وأجل .

وقد جعل وظيفة الإنسان خلاف وظيفة الآلة وأعلى . فذلك التصور المنبثق من الإيمان بالله يجره إلى الإيمان بالملائكة والكتاب والنبيين— هذا شيء ضرورى للإيمان لامحالة — من كفر ببعضه فقد كفر بجميعه — ومن آمن بالكتاب والنبيين الذين خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم وجب عليه اتباعه وتنفيذ وصايا ربه جميعها وإقامة حدوده ، وجعل الحاكمية له فى الأرض كما هى له فى السماء ، وذلك بتحكيم شريعته ، والقيام بنصرة دينه ، وقمع المفترى

عليه . فمن عمل هكذا فهو المؤمن بالقرآن حقيقة ، لأن هذه الأمور هي التي يصدق عليها معنى الإيمان ، ومن لم يقم بها فليس في قلبه من الإيمان بالله شيء سوى الدعاوى الفارغة والمزاعم الكاذبة التي يخدع بها نفسه أو يخادع الناس . كما أن من زعم الإيمان بمبدأ قومي أو مذهب مادي طالبه أهل ذلك المبدأ أو المذهب بالعمل من أجله والسعي لصالحه والتقيد بمخططاته ، فإذا نكص عن العمل أو خالف المخطط اعتبروه منافقاً أو منحرفاً أو خائناً أو مرتداً حسب مايرونه فيه ، فلا يسمحون له بالانتساب ، ولايرضون منه أن يلعب على أذقانهم .

وهكذا فحقيقة الإيمان هي العمل بمقتضياته ولوازمه تماماً بدون إخلال . ومن ادعى إيماناً عارياً عن العمل والتضحية فهو كاذب وأكذب منه من خالطه الريب والشكوك ، كشأن كثير من أدعياء الإسلام والإيمان الذين انصبغوا بثقافة الإفرنج وأعجبوا بها ، وزهدوا في وحي الله ورسالته ، بل لم يقدروه حق قدره ولا بعض قدره فلم يعاملوه ولا بعشر معشار ما يعاملون زعماءهم ورواد مذاهبهم من الحب والإجلال والعمل والانقياد والبذل والتضحية ، بل كان سهمه منهم الإعراض والاشمئزاز من ذكره والاستهزاء بمن يدعو إليه كما أخبر عنهم بقوله (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون)[1] .

وقال تعالى : (وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً . أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون)[2] صدق الله العظيم ، إن لكل قوم وارث ، فالمتعلقون بالمذاهب العصرية ، والمتجهون إلى روادهم من فلاسفة مذاهبهم وزعمائها إذا سمعوا من يتكلم بتوحيد الله أو يكتب عنه

---

(1) سورة الزمر، آية (٤٥).
(2) سورة الأنبياء، آية (٣٦).

هزئوا به ولقبوه بشتى الألقاب البشعة، لتنفير العوام عنه ، وقالوا هذا عدو الزعيم الفلانى والمذهب الفلانى والرائد الفلانى والجنس الفلانى . هذا الرجعى المتحجر المتزمت ، ونسوا أنهم قد هربوا من الإيمان الصحيح بالله ، وانتهجوا الخطط المعادية له ، وأنهم هم الرجعيون الذين رجعوا إلى صنوف الجاهلية الأولى، وأنهم هم المتحجرون الذين تحجروا واسعاً وضيقوا نظريتهم وحصروا عملهم على فئة واحدة ووجهة واحدة وتزمتوا لها بحصر انصياعهم إليها وطرح ما سواها ، مما أعادوا به العصبية الجاهلية ، فهم ألصق بتلك الألقاب التى يصمون بها المتبعين لوحى الله وحكمه ، ولكن الملحد الذى يميل به الهوى عن سبيل الله ، وتستهويه الشياطين ، فلا يبصر الحقيقة التى جاء بها وحى الله لتزكية الإنسانية والارتفاع بها عن التسفل المعنوى الذى استزلتها شياطين الجن والإنس إليه ، فوحىُ الله سبحانه أعطى المسلمين مفاتيح الكنوز المعنوية فى الدنيا ومفاتيح الجنان فى الدار الآخرة ، وهم لم يضيعوا هذه المفاتيح ، بل هم محتفظون بها احتفاظاً لفظياً وسطحياً ، فهى عندهم محترمة مقدسة ، ولكنهم عطلوها عن وظيفتها ، فلم يستفتحوا بها تلك الكنوز ، لأنهم اكتفوا من نصوص الوحى بألفاظها ومبانيها دون مقاصدها ومعانيها ، واكتفوا من سنن الله بأشكالها دون غاياتها ، ومن عظماء سلفهم بقبورهم لا بحكمتهم والعمل بمبادئهم وفضائلهم ، واكتفوا من القرآن وسائر الكتب بطباعتها وتجليدها والترنم بقراءتها دون العمل بما فيها ، فكانوا كالمنسلخ منها لإصرارهم على مصالح خاصة تعارضها والعياذ بالله .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن هذا القرآن حبل الله المتين ، والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لايزيغ فيستعتب ، ولا يعوج فيقوم ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الترداد ، اقرؤوه فإن الله يأجركم على قراءته بكل حرف عشر حسنات ، لا أقول (ألم) حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف) .

وليست قراءته المطلوبة هذرمة أو ترنماً يخرجه عن شرف مكانته وعلو رفعته إلى فن الأغانى والمطربات ، كما أولع به أهل هذا الزمان ، ولا أن تقصر قراءته على المآتم كما يفعلونه فى الأحزان ، ولا أن يؤول تقديسه إلى أن يجعل تعاويذ يحملها المرضى أو الموسوسون والصبيان فإن الكتاب وكل كتاب لايرسل لأجل نقوشه ولا لتكييف الأصوات بكلمه وحروفه ، ولكن لأجل أن يعلم مراد المرسل منه ويعمل به .

وقد ضرب الإمام الغزالى مثلا للعاصى إذا قرأ القرآن وكرره ، فجعله بمثابة رجل مسئول عند بعض الملوك جاءه كتاب من الملك فيه أوامر وتوصيات هامة فأخذ يكرر قراءته ويقبله ويضعه على رأسه دون أن يعمل بشيء مما فيه .

ذكرنا فيما مضى طرفاً صالحاً من حكم الصوم وفوائده ، ونزيدها الآن بمناسبة قوله تعالى : (وإن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون) وذلك أن الصوم نصف الصبر كما ورد في الحديث الذى رواه الإمام أحمد وابن حبان فى صحيحه والبيهقى والبزار ورجاله رجال الصحيح . وقد سمى النبى صلى الله عليه وسلم رمضان شهر الصبر ، كما ورد عنه (وهو شهر الصبر ، والصبر ثوابه الجنة ، وإنما سمى الصوم نصف الصبر لأن قوى الإنسان ثلاثة : قوة شهوية كالتى فى الحيوان وقوة غضبية كالتى فى السباع ، وقوة روحية كالتى فى الملائكة ، فإذا تغلبت قوته الروحية على أحديهما كان ذلك نصف الصبر . وفى الصيام الصحيح يتغلب على القوتين الشهوانية والغضبية .

ولما كان موقف المسلم على الدوام موقف جهاد لقوى الشر الداخلية والخارجية ، ومن أكبر عدة الجهاد الصبر وقوة الإرادة ، كان الصيام خير وسيلة للتربية على ذلك كما أسلفنا ، زيادة على الأجر العظيم غير المحدود،

حيث يقول الله : (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)[1]. وقد قدمنا أن من انهزم فى الجهاد النفسى الداخلى لايصلح للجهاد الخارجى ، لأن هزيمته محققة .

وفى الصوم يتحرر الإنسان من سلطان الهوى وسلطان الغرائز ، وينطلق من سجن جسده وقيد شهواته ، محلقاً بروحه ، شامخاً برأسه نحو الله جل وعلا ، فليس عجيباً أن لاترد دعوة الصائم لاقترابه فى رحمة الله ورضوانه .

وفى الحقيقة ان أسرار الصيام العظيمة لم يكتشف منها البشر إلا القليل كما قال تعالى : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) فحكم الله العظيمة من وراء ذلك الجوع والعطش والانحباس عن الشهوات فى مدرسته الشهرية كل سنة لايمكن إدراكها كلها ، ولكن إذا عرف الإنسان حقيقة تكوينه ، وأنه ليس مجرد هذا الهيكل المنتصب ، ولاهذه المجموعة من الأجهزة والخلايا واللحم والدم والعظم والعصب ، وأن للإنسان حقيقة أخرى غير ذلك ، حقيقة روحية ، وسر من أسرار الله ، وجندى خاص يمتاز على سائر الأجسام الأرضية .

فالجوهرة الروحانية التى جعلها الله فى الإنسان بها يعقل ويفكر ، وبها ينبثق شعوره نحو خالقه ، فيتطلع إلى ابتغاء مرضاة الله ليفوز بمدد السماء وحصانة السماء ، والنصر العزيز من رب السماء فى الحياة الدنيا ، والفوز بالملكوت الأعلى فى الدار الآخرة . فالإنسان جسد سفلى وروح علوى : فالجسد بيت والروح صاحبه الساكن فيه . والجسد مطية والروح هى الراكب المسافر فالبيت لمصلحة الساكن والمطية لمصلحة الراكب : فاذا سلم عقل الإنسان الفطرى من المؤثرات الشيطانية اتجه إلى الله متبعاً وحيه المبارك .

---

(١) سورة الزمر، آية (١٠).

وفى هذه الحالة يعرف قيمة نفسه ويدرك سر الله فيه ، فيؤثر أشواق الروح إلى الله على نوازع الجسد إلى الشهوات ، فيكون من خير البرية كما وصفه الله . أما إذا عكس الأمر فجعل روحه عبداً لجسمه ونفسه خادماً لشهواته لما استزلته الشياطين من حقيقته ، فهذا صار ممن اتخذ إلهه هواه ، وجعل روحه خادماً لجسمه كما قيل :

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمتــه أتطلب الربح مما فيـه خسران

أقبـل على النفس فاستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

فتنويع الله للعبادة رحمة منه وحكمه لتهذيب النفوس وصقل الأرواح وتصفية العقول وحفظها من نزعات الشياطين ، وفرضية الصيام لها أعظم مساس بهذا الشأن لأنها ترتقي بروح الصائم ارتقاء يحفظه من كل انحطاط. والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

وقوله سبحانه وتعالى : (وبينات من الهدى والفرقان) يعنى بينات واضحات المعانى والمسالك ، فالقرآن دستور كامل شامل لنظام الدنيا وخير الآخرة ، وصفه منزله سبحانه وتعالى بأنه (هدى للمتقين) فى عامة أحوالهم ، حتى أن جميع قصصه محتوية على الأحكام والعبر .

وللاختصار أنبه القراء والسامعين إلى سورة واحدة قصيرة أودع الله فيها دستوراً عظيماً للحياة السلميّة والحربية ، وضمنها من حقوق الإنسان ما لا يستطيعه العقل البشري بجميع منظماته الدولية الممتحنة بشتى أنواع التجارب القاسية ، لامنظمة حقوق الإنسان ولا ما هو أعلى منها ، فهذه السورة التي سبقتهم بأربعة عشر قرناً إلى أشرف الغايات وأجمل الخصال هى سورة (الحجرات) التى ابتدأها الله سبحانه بتركيز القيادة العامة فى المسلمين بوحى السماء تمكيناً لإقرارها فى حياة الناس ، حيث قال سبحانه :

(لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) وهذا أخذ بحجزهم من أول الطريق حتى لايدع لهم شيئاً من الخيرة فى أمر الله ورسوله ، ولا يجعل لهم حق التقدم عليه بأى أمر أو رأى يعارضه . ولذا جاء النص بصورة تجمع شوارد النفس كما قال فى الآية (٣٩) من سورة الأحزاب : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) .

ثم تأتى بالأمر الصريح بالتزام الأدب كما سنفصله فى تفسير تلك السورة . ثم تركز الثقة بالقيادة وتقطع الطريق على كل من يريد النيل منها أو الإساءة إليها أو يعمل على شىء من الاستفزاز لها أو عليها كما سنوضحه أيضاً إن شاء الله

وكذلك تركيز التفويض للقيادة ومعالجة كل خصومة بالصلح أولا ، ثم بتأديب الباغى المعتدى ثانياً حتى يرجع إلى رشده محفوظاً له حقه من العدل والقسط ، ومحترم فى دينه من الطعن ، فلا يخرج من الدين بمجرد القتال بل هو باق على أخوة الدين ، ، فنزوة الطيش التى سببتها أغراض النفوس لاتخرج صاحبها من الإيمان كما هو واضح من أول السياق وآخره . فأوله (وإن طائفتين من المؤمنين اقتتلوا) وآخره (إنما المؤمنون إخوة) .

وقد ترجم البخارى باباً فى ذلك كما سيأتى توضيح الجميع بحول الله وقوته. ثم تركيز مجموعة من الأخلاق الاجتماعية الفاضلة لحماية المجتمع المسلم من التفكك والتصدع وتحصين أواصر الأمة من البغضاء والشقاق والعمل على جمع شمل الأمة بالمحبة والتعارف ، والعمل أيضاً على التفاف المسلمين على حقيقة الإيمان وخضوعهم لسلطان الله فى كل شىء وارتباطهم به فى جميع الحالات . فيا لها من سورة عظيمة قويمة لايغنى عنها جميع مقررات أهل الأرض ، بل ولا يأتون بمثلها . ومع هذا نجد بعض مدراء الجامعات العربية من (دكاترة) العرب يرسم فى مجلة (العربى) للقومية نقاطاً لايكتبها إلا أجهل

الناس بالقرآن وأبعدهم عنه ، بل أجهل الناس بما يجرى فى المحيط الدولى الذى يدعونا إلى تعشق مثله العليا – ونحن لا نرى فى محيطه إلا المثل السفلى .

من المؤسف أن يتفوه (دكتور) يتبجح بالعروبة ويستظل بالإسلام بهذا الكلام فى نقاطه الخمس الهزيلة ، وهو يرى المآسى الفظيعة تجرى فى الدول التى يقدسها كأنه ساكن فى غير هذه الكرة الأرضية،لايسمع ولا يبصر مافعلته الدول فى شرقى (أوربا) والبلقان والجزائر وفلسطين والحبشة والزنجبار ، وما تفعله دولة الهند بالمسلمين وفى جبل (بور كلكته) و (كشمير) ، وما يجرى على المسلمين فى (الفلبين) و (قبرص) وما يجرى فى أمريكا ، وما فعلته (روسيا) من الوحشية المنقطعة النظير ، وما فعلته (بريطانيا – فى نواحى – مسقط) بل فى نفس بلادها (إيرلندا) وغير ذلك مما يصعب إحصاؤه من المثل السفلى الذين يسميها ذلك الدكتور بالمثل العليا .

فالعرب لم يجعلهم الله صفر اليدين من كل هدى ورسالة حتى يرشدهم أمثال هذا إلى (تعشق المثل العليا الدولية) أو ينصحهم أن يكونوا على صلة دائمة بالعالم حتى لا تنزلق العروبة فى (مهاوى الفاشية) على زعمه ، مع أنها بعد سنتين من نصيحته الهوجاء انزلقت إلى مهاوى الشيوعية لابتعادها عن صراط الله وأنواره غاية الابتعاد .

فما أعظم خسارة المسلمين عامة والعرب خاصة بإغفالهم كتابهم وانحرافهم عنه ، مما جعلهم بعد السيادة والقيادة فى رق معنوى وسكر معنوى يتردون بسببه فى انحطاط خلقى سحيق وسبات من التقليد عميق .

وما أعظم خسارة العالم كله بإضاعة العرب والمسلمين مملكة الرحمن وهدى القرآن الذى شرفهم الله به مستجيباً لدعوة أبينا إبراهيم عليه السلام .

فلنتساءل جميعاً عن موقفنا من القرآن الذى قال فيه منزله جل وعلا :

(لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون)[1]. هل تلوناه حق تلاوته بإقامة حدوده وحمله إلى جميع البشرية المتعطشة إلى دين يحجبها من الانحلال ويغذيها بأشرف الخصال ؟ هل عرفنا ميزتنا بالرسالة وشكرنا ربنا عليها شكراً عملياً هو القيام بالواجب لنحقق الذكر الحسن ؟ أو على العكس سفهنا أنفسنا واستخففنا بواجبنا ، فلم نعره اهتماماً ، اقتداء باليهود ، فاشتركنا معهم بالمثل السيء الذى ضربه الله لهم ، إذ قال : (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً)[2].

بالله عليكم أى فارق بينهم وبين من ترك العمل بالقرآن وأضاع حدوده ومزقه تمزيقاً معنوياً بعزله عن التشريع وإقصائه عن الحكم ، وحرم نفسه وأهل الأرض جميعاً من الاهتداء به ، فلم يبلغ رسالات الله على ضوئه ؟ ما الفرق بين اليهود وبين من هذه صفاته ؟ إنهم يلبسون على الناس بشتم اليهود ودعوى محاربتهم ، بل هم والله لايظهرون شتم اليهود ولا محاربتهم وإنما يشتمون أو يحاربون من يسمونهم (صهاينة) ليبقى اليهود فى مأمن عن شتمهم وحصانة من حربهم . وهل يوجد يهودى على وجه الأرض لا يسند الدولة المسماة (إسرائيل) حتى يجوز أو يسوغ لهم ذلك ؟ .

أيها المسلمون : إن مسئوليتنا كبيرة ، وإنها والله من الخطورة بمكان عظيم . تأملوا أيها المسلمون إذا كان الذى يقرأ الكتاب لمجرد التلاوة ويعطل أحكامه، مثله كمثل الحمار ، فكيف حال من لا يقرأه ولا يعيره اهتماماً ؟ بل يراه كتاباً رجعياً بالياً ويعتبره أوراقاً صفراء مدعاة للتخلف ، زاعماً أنه لا يوافق حال العصر ، ويعكف على قراءة الكتب المادية من الشيوعية وغيرها مما تقذف به دور الطبع والنشر الحديثة من المصورات الخليعة والأقاصيص

---

(١) سورة الأنبياء، آية (١٠).

(٢) سورة الجمعة، آية (٥).

المساجنة والمقالات الإلحادية ، ويعمر الملاعب والنوادى ودور اللهو المختلفة بدلا من المساجد .

أليس حال هذا شر ممن ضرب الله لهم المثل السيء أم لا ؟ وهل هو بحالته البهيمية أحسن من مستوى الكفار الذين قال الله فيهم : (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم) ؟[1].

لقد أثبتت التجارب أن طلب العلوم والفنون مع إهمال النفس عن التربية الدينية المحمدية لايجدى نفعاً ولا يحل مشكلا ، بل يتكون منه عالماً مادياً لاهم له سوى النفعية والوصولية بأى شيء كان وعلى أى حساب كان . وما هذا التسابق فى التسليح والانهماك فى صنع ما يدمر المدنية إلا من خراب الضمائر بسبب ابتعادها عن هدى رب العالمين .

أيها المسلمون : التفتوا إلى سلفكم الصالح تجدوا أحدهم بحمله بعض سور من القرآن أصلح ما أفسده الفرس والروم وفتح القلوب قبل أن يفتح البلاد . نعم فتح القلوب بحفاظه على الأنفس والأموال والأعراض ، دون استئثار بشيء، أو طمع فى منصب أو لقب . وانظروا أهل زمانكم وما ضاع ويضيع بينهم من أموال وكرامة ، ويهتك من عرض ، ويراق من دم ، وإذاعاتهم تتبجح بالحرية وخدمة الشعوب إفكاً وتضليلا . ويكفى إلقاء نظرة على ما تفعله بعض الحكومات الفتية من إضاعة الأموال الطائلة فى أعياد رسمية ومراسيم شكلية ، وما يذوقه معارضوهم من أنواع التنكيل ، لتعرفوا كيف دفعت الأمة ثمناً غالياً لإضاعة القرآن .

أما العرب المسلمون الذين صلحت ضمائرهم بالقرآن فقد ترفعت أنفسهم عن المادة وطهرت أخلاقهم عن تسخير الشعوب والجناية على عقولها واللعب

---

(١) سورة محمد، آية (١٢).

بمقدراتها ، لأن القرآن حداهم إلى العدل والإحسان والصدق والرحمة ، فقضوا بالحق وأطلقوا الفكر حراً ، لا تقيده الأوهام المصنوعة ، ولا تستره حجب الأباطيل التى تقذف بها وسائل النشر المختلفة .

أيهـا المسلمون : لقد سيطرت الثقافة الاستعمارية على أدمغتنا وجعلتنا كأبعد الأمم عن القرآن الذى أنزل علينا وفى لغتنا ، فأدخلت فينا عصبية الجنسية التى حرمها الإسلام وشدد فى منعها بعد أن أضعفوا العلم والدين فينا . وقد بذلت الماسونية اليهودية بواسطة الاستعمار جميع الوسائل فى تركيزها بأذهان الناشئة والرعاع ، لأنهم يرون فيها نقضاً لعهد الله فى اتباع ملة إبراهيم ، وقطعاً لما أمر الله به أن يوصل من الميثاق الإسلامى الذى يربط العربى بالأعجمى والمشرقى بالمغربى كما شرعت أركان الإسلام كلها من أجله، لولا ابتعادنا عن القرآن لما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

فالواجب على كل من يعتز بعروبته أن يجعل منها أكبر حافز له على أخذ القرآن بقوة ، وحمله بالتبليغ الصحيح العام الشامل ، كما أمر الله ، ليكون محققاً لعروبته الصالحة ، وانتسابه لذلك النبى الكريم صلى الله عليه وسلم ، فيكون مرضياً لربه الذى أنعم عليه بذلك ، ويكون مكرماً لنفسه ، غير مهين لها ، ولا مستخف بها ، فإن من لم يحمل القرآن حملا صحيحاً إلى جميع المعمورة حسب استطاعته فقد سفه نفسه ودساها بنبذه لرسالات ربه ، وكان باستجابته لداعى الغى كاذباً فى جميع مزاعمه ، قد صدق عليه إبليس ظنه ، فكان من أتباعه وكسبه .

حقا إن المستجيب لداعى الغى إذا واصل استجابته بإصرار انسلخ من القرآن ، فكان من أتباع الشيطان ، مستحقاً أسوأ مثل ضربه الرحمن ، ولو بلغت به دعاية المديح والتهريج مبلغاً عظيماً وحاز من الشعبية وصنوف الألقاب ماحاز ، فإنه لايرتفع عما وصفه به الخلاق العظيم . وكيف يرتفع من وضعه الله بسبب قصور همته ونقص إيمانه عن حمل رسالة ربه ؟ كيف يرتفع من

أبى أن يشرف نفسه بالكتاب الذى شرفه الله به فاختار الضعة لنفسه باقتفائه مارسمه له أعداء الله وأعداؤه ؟ .

إن من جعله الله بهذا المثل السيء لاينفعه مايسدى عليه البشر من ألقاب ، ولا يرتفع برفعة مركزه عن ذلك ، بل يأخذه الغرور برفعة الشأن الخلابة ، فيتمادى فى إعراضه عن القرآن واستهجانه لوحى رب العالمين حتى ينحط إلى مثل أسوأ وأسوأ ، وهو المثل الذى ضربه الله أيضاً لمن أوتى الكتاب فانسلخ منه واستبدله بتقديس الجنس والوطن ، فجعله الله بهذه الغواية بمثابة الكلب ، حيث قال جل وعلا : (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين)[1] . ذلك أن الشيطان ليس سلطاناً على عباد الله المخلصين له قصداً وعملا (إنما سلطانه على الذين يتولونه) : فأخبرنا الله عمن هذا شأنه أنه لاستجابته لوساوس الشيطان واطمئنانه لطاعته استولى عليه فتخلى الله عن نصرته فلم يرفعه بتلك الآيات التى انسلخ عن العمل بها ، فلذا قال سبحانه : (ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه) بانسلاخه عن وحى رب العالمين (أخلد إلى الأرض واتبع هواه) فكانت رغبته ومنتهى عزيمته فى الأرض تقديساً للجنس والوطن ، رغبة منه فى المادة ، وتعلقاً بالأنانية والأغراض النفسية التى هى مصدر عبادة الهوى والغواية (فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث)[2].

تالله إن هذا المثل منطبق على أهل هذه الصفات من المعرضين عن القرآن إلى أبد الآبدين ، إذ الواقع المحسوس يشهد بذلك ، فى الماضى يقص التاريخ كثيراً من هذيان الذين اقتصروا على إرادة حرث الدنيا وأعرضوا عن كتاب الله ، وفي الوقت الحاضر تكاد تصم الآذان من كثرة سخفهم وصيحاتهم

(١) سورة الأعراف، آية (١٧٥).

(٢) سورة الأعراف، (١٧٦).

الوحشية في الإذاعات، كل منهم يدعو إلى معسكره ويشتم الفريق الآخر . وإذا سكت فريق لم يسكت الفريق الآخر.

فهذا المثل الرائع هو من معجزات القرآن الخالدة ، إذ جميع الصفات الكلبية الخسيسة موجودة فيمن انسلخ عن وحي رب العالمين ، لأنه محروم من الآداب القرآنية الجليلة ، فالتصقت به خسائس الصفات الكلبية ، حتى فيما نحبذ تنزيه أقلامنا عن ذكره .

وبما أنه جرت سنة الله الكونية التي لا تتغير ولا تتبدل بأن أصحاب المخالفات إذا تمادوا فى غيهم ولم يؤوبوا إلى رشدهم، تكون عاقبتهم التكذيب بآيات الله والاستهزاء بها ، فإني أربأ بالمسلمين من التمادى فى انحرافهم عن تعاليم القرآن وتحكيمه خشيه أن تحيق بهم هـذه العاقبة السيئة كما حاقت بغيرهم ، فيكونوا من أهل هذا المثل السيء الثانى الذى هو أسوأ من الأول وأفظع ، قال الله تعالى : ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوء أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤون﴾[1] فلنتفكر جيداً في موقفنا من القرآن. هل هو موقف سلبى فقط ؟ أو موقفنا موقف النابذ له .

لنحذر أن نكون ممن ابتغى غير الله رباً أو افترى عليه الكذب ، فإن الله توعد نبيه وحبيبه محمداً عليه الصلاة والسلام بمضاعفة العـذاب فى الدنيا والآخرة إن هو ركن إلى الكفار شيئاً قليلا فى طلبهم منه الجنوح إليهم بعض الشيء ليتبعوه ، فاعتبر الله إجابتهم افتراء عليه . فكيف بحال من يركن إليهم شيئاً كثيراً ؟ قال تعالى : ﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلا . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا

(١) سورة الروم، آية (١٠).

نصيراً)[1] أي لو ركنت إليهم ذلك الركون القليل الذي يدنيك منهم ويرضيهم
نصيراً) أى لو ركنت إليهم ذلك الركون القليل الذى يدنيك منهم ويرضيهم
لضاعفنا لك العذاب المعجل فى الحياة الدنيا، وضاعفنا لك العذاب الذى يعقب الموت من عذاب القبر وعذاب النار ، ثم من ذا الذى ينصرك ؟ لن تجد لك علينا نصيراً .

(فيا أمة القرآن) إن فى هذا الوعيد الشديد دليل قاطع على أن أدنى مداهنة للكفار أو انصياع لتقليدهم هو مضادة لله ، وخروج من ولايته ، وسبب موجب لغضبه ، وقد صدق علينا هذا الوعيد بزيادة ركوننا إليهم ومداهنتنا لهم . فما هذه الكوارث والنكبات المتلاحقة التى حلت وتحل بالمسلمين فى كل زمان ومكان إلا من غضب الله علينا بذلك وتنفيذه وعيده بمضاعفة العذاب فى الحياة . فمتى نؤوب إلى الله ونعطى القرآن حقه ليرفعنا الله مما نحن فيه ؟

قال فى الكشاف« فعلى المؤمن إذا تلا هذه الآية أن يجثو عندها ويتدبرها ، فهى جديرة بالتدبر وبأن يستشعر الناظر فيها الخشية وازدياد التصلب فى دين الله » .

وأقول : هذا واجب المؤمن الذى يتلو القرآن حق تلاوته كما أمره الله ، ففيه مايهيج النفوس ويثير العزائم ، ولو طهرت قلوب المسلمين من أمراضها ، وأخلصوا دينهم لله ، لعرفوا قيمتهم وواجبهم أمام القرآن إذا تلوا هاتين الآيتين فقط ، وهما قوله تعالى : (فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون).[2]

أليس من المؤسف أنهم عالة على غيرهم فى كل شىء ؟ أليس من المؤسف

(١) سورة الاسراء، آية (٧٣ ــ ٧٥).

(٢) سورة الزخرف، آية (٤٣).

المبكى أن أغلب أولاد المسلمين فى حاجة ماسة إلى لغات الأجانب ، ولو استمسكوا حقاً بكتاب ربهم وحملوه كما أمر ، لطبقت لغتهم مابين الخافقين ، ونطق بها جميع أهل الأرض عن حب ورغبة ، فحققوا عزهم وذكرهم الذى اختاره الله لهم ، وكان لهم السؤدد والقول الفصل فى هذه الحياة بدلا من حالتهم المعكوسة التى نالوا بها مضاعفة العذاب فى الحياة .

أيخفى عليهم ما للغة من تأثير عظيم فى الدين والأخلاق والعقول ؟ خصوصاً لغتهم .

حقاً إن من لم يرتض القرآن دستوراً بمعنى الكلمة لابد له من ابتداع شيء أو اقتفاء شيء من وضع البشر ، فيكون ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام وأحكامه ، وهذا من أظلم الظالمين ، فيكون عرضة لعقوبات الله المتنوعة كما قدمنا ذكر الوعيد الشديد على ذلك ، وقال تعالى فى مزيد التهديد : (سيجزيهم بما كانوا يفترون — سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم — سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين) . وكل هذا قد حاق بنا والعياذ بالله .

لقد أورثنا سوء موقفنا من القرآن الكريم انحطاطاً عاماً فى كل شيء ، وجعل العاطفة علينا مسيطرة لاتجرى إلا على فاقد التمييز ، وجعلتنا كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران يتأرجح بين جحيم المبادئ الهدامة ، وبلغ بنا الانحطاط إلى أن جعلنا نقلد أعداءنا فى الرذائل ، ونقصر عن لحوقهم فى المخترعات وكسب الأسواق والنفوس ، حتى صرنا فى مهوى لايجوز تسميته إلا بـ (سقوط النفس) ، وهذا من بعض عقوبات الله القدرية لمن أعرض عن وحيه وهداه . وفى مثل هذا يقول الشاعر عبد الحق حقى البغدادى فى قصيدته المسماة (أعجب العجب من أحوال العرب) بعد ما أشاد بأمجاد الأسلاف فى فصله الأول الذى سماه (ماضيهم المنيف أو مظاهر رضا الجبار

عنهم) . قال فى أوائل الفصل الثانى الذى سماه (حاضرهم المخيف أومظاهر غضب القهار عليهم) :

يا أمـة ذاك ماضيهـا الـذى عرفت ... منه بمجد صريح غير مؤتشب
ماذا دهاك ؟ فقد أصبحت هـاوية ... مهاوى الذل من جبن إلى عطب
بمـا ابتليت وماذا قـد منيت بـه ... فصرت من بعد خفض العيش فى نصب
ما السحر أسـوأ مساً لو سحرت به ... مما دهاك فساوى الرأس بالذنب
والسحر ليس لـه فعل ولا عمـل ... يحكى انقلابك من رأس إلى عقب
قذفت بالمجـد فى مهوى لو انحدرت ... فيه النجوم غدت فحماً بلا لهب
مهوى من الذل نائى الغور ممتلىء ... من المصائب بالأرزاء والنوب
قـد انسحبت عليـه شر منسحب ... بمـا اكتسبت إليـه شر مكتسب
وبت فى نوب للظهر قـاصمـة ... لم يذكروا مثلها فى سائر النـوب
فالجسم فى شلل والعقـل فى خـلل ... والقلب فى نصب والروح فى وصب
والله ليس بظـلام لأعبـده ... فـلا يغير من حال بـلا سبب
قد كنت تاجاً لأجيال الورى عصراً ... فصرت من بعد تلك الجيل فى العقب
وكنت موفورة الخيرات صاعدة ... بالدين ذروة مجـد غـير منسحب
فصرت أسفل سفلاها كما انقلبت ... بالخسف ذروة طود شـر منقلب
وكنت هذبت أخـلاق الورى زمناً ... واليوم منك سوى الأخلاق لم يعب
وكنت آمرة المعروف قـائمـة ... بالنهى عن منـكرات السوء فى دأب
فصرت أنت عن المعروف معرضة ... وصرت للمنكر المـذموم فى طلب
وكنت حررت من ظلم ومن عنت ... قوماً من الظلم والظلام فى نصب
فاليوم تظلمك الدنيـا بأجمعهـا ... ولا يهيجك هيـاج إلى الغضب
وكنت أنقذت من جهل ومن عَمهٍ ... بنى جهالتها الهاوين فى الريَبِ
واليوم أنت أبو جهل وزدت بـه ... زيادة الحمق فى حمـالة الحطب
لئن رجعت إلى الطاعات من كثب ... لتظفرن بحـول الله من كثب

وإن بقيت على ما أنت فيـه فـلا مفر من نقمة الجبـار والتبب
شر بشر ومن يعمـله يلـق ومن يزرع من الشوك لايحصد من العنب

فيا أمة محمد عموماً ويا من يعتز بعروبته خصوصاً غيروا موقفكم من القرآن إلى موقف حسن وأحسن يليق بكرامتكم ويصدق انتسابكم إلى هذا النبي الكريم واعتزازكم بحقيقتكم ولغتكم الحبيبة لغة القرآن فهو المنجى لكم.

نعم إن وحى الله العزيز هو المنجى الوحيد والعاصم الفريد من جميع الأفكار الهدامة التى تفاقم شرها فى هذا الزمان ، وعصفت بالاستقلال الفكرى لكثير من الناس ، وصادرت عقولهم بسبب فراغها من وحى الله الذى يحميها ويعصمها منهم ، فوحى الله فيه الهداية الكافية والشافية والمنجية والعاصمة من جميع مصائد شياطين الإنس المفسدين للعقول والجانين على الفطرة ، وفيه البينات الواضحات من الهداية الصحيحة العامة ، والعرفان الذى يفرق بين الحق والباطل ، ويفصل بين الرذائل والفضائل فصلا واضحاً لا مرية فيه ، ولهذا أبان الله الحكمة فى تخصيص شهر رمضان بشريعة الصيام بقوله : (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن . .) حيث اختاره من بين الشهور ، فأنزل فيه أول ما أنزل من القرآن الذى فيه الهداية العامة للناس ومعجزة الهداية تثبت بنفسها أن هذا القرآن ليس صنع أحد من البشر قطعاً ، فليس من إنشاء محمد صلى الله عليه وسلم وابتكاره وليس من ثمرة عبقريته وذكائه، لكونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، كما قال عنه الله سبحانه وتعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون)[1]، ولكونه منعزلا قد فطمه الله من مصاحبة القصاصين أو غيرهم من علماء الكتابيين .

وقد حاول المستشرقون أن يخلقوا له صحبة مع الرهبان فى سفره إلى الشام بالتجارة مضارباً لخديجة بنت خويلد ، وقلدهم بعض الكتاب الذين قبلوا

(١) سورة العنكبوت، آية (٤٨).

مصادرة عقولهم ، فزعموا أنه انتفع بهم ، ولو فكروا بعقول استقلالية لعرفوا أن عند الرهبان ونحوهم من الكبرياء مايجعلهم يكتمون العلم عن بنى نحلتهم ، فضلا عن غريب مستطرق من العرب .

فنصوص القرآن شاهدة بكليتها على أنها ليس فيها شيء أبداً من قول محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه أمين لم يترك تبليغ شيء مما أنزل إليه من ربه حتى مافيه معاتبته ولومه الشديد ، فهو حجة قاطعة له صلى الله عليه وسلم ، ودليل خالد على صدقه فى دعوى النبوة ، وفرقان القرآن واضح فى التفرقة بين الحق والباطل ، فهو يبين الحق ، ويوضح معالمه ، ويفصل آثاره وثمراته الطيبة بما يدعو إلى الاستجابة إليه والتمسك به ، ويكشف عن الباطل ، ويفضح مساويه ويحذر من أضراره ومفاسده ، تحذيراً يدعو إلى رفضه واجتنابه . فالآية تشير إلى أن هذا الشهر المبارك الذى فضله الله وشرفه باختيار إنزال هذه المكرمة إلى الإنسانية وهى (مأدبة القرآن الروحية) ، تلك النعمة العظمى والمكرمة الكبرى التى لايفضلها شيء ، يجب أن ترعى حرمته ، وأن تحيا ذكراه فى العالم الإسلامى الكبير ، فلذلك شرع فيه وجوب الصيام الحتمى ، وذلك تشريع يناسب هذه المكرمة الرفيعة ويتفق مع أهدافها وغاياتها ، والحكمة من إنزالها ، لأن القرآن هدى ونور يحث على التقوى والصبر والجهاد وضبط النفس والأعصاب عن كل شهوة جامحة مضرة بالعقيدة أو الأخلاق ، ويأمر بالرحمة والعدل والمساواة وحسن المعاملة ونزاهة الضمير والتزام الصدق والصراحة والإخلاص فى القول والعمل وتطهير النفس من شوائب النفاق والغش والخداع ، فناسب أن يكون شهر رمضان هو شهر الصيام ليتم شكر المسلمين لله فيه على هذه النعمة الكبرى ولينطبع المسلم بأخلاق القرآن فيه إذا توفرت حكمة الصيام ، لأن الصيام يبعث صاحبه على الصدق والإخلاص والإحسان والرحمة ومراقبة الله ، وينمى فى النفس قوة الإرادة وصدق العزيمة ورباطة الجأش ، لأنه يمرنها على الجلد

والصبر في مكافحة الشدائد والملمات ، وعلى جمع الهمة وبذل الجهد لتذليل الصعاب ، والتغلب على النوائب والعقبات ، فالصيام إذا استوفيت مقاصده كان أحسن مبصر بحكمة نزول القرآن ، وخير مساعد على الاهتداء بهديه وتنفيذ أحكام الله فيه .

وإذن فمن جملة الحكم لصيام رمضان أنه إحياء سنوى مجيد لذكرى نزول القرآن الذى هو من أعظم النعم والمكرمات لهذه الأمة ، ليكون صيام هذا الشهر من القيام بالشكر العملى على ذلك .

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يبشر أصحابه بقدوم شهر رمضان ويعنى بتعظيمه والاحتفال به بكثرة العبادة والجود ومدارسة القرآن حتى أنه يكون فيه أجود بالخير من الريح المرسلة ، وكان يحض أمته على بذل المجهود فى العبادة والجود بالخير ، وكان يعرض القرآن على جبريل أمين الوحى ، وفى آخر سنة من عمره عرضه عليه مرتين للدراسة ، فما أعظمها من مناسبة .

هذا وقد أوضحت فيما مضى أسرار الصيام وفوائده الروحية والاجتماعية والصحية مما ظهر لى، وقد يكشف الزمن أسراراً لم يحط بها أحد ، فالاكتشافات الطبية تتقدم وكذلك غيرها ، كما قال تعالى : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد)[1] .

وحكم الله عظيمة بالغة لاتقف عند حد ، فلنتأمل حكمة الله من وراء ذلك الجوع والعطش الذى يستوى فى حكمه القوى والضعيف ، والغنى والفقير ، والزعيم الكبير والفرد الحقير ، والواجد والمعدم ، كلهم فى حكم الصوم والإفطار سواء ، عدل من الله فى حكمه ، وتعليم لعباده على العدل والمساواة ، كما أن فى ذلك تكويناً للعاطفة والرحمة فى النفوس كما

---

(١) سورة فصلت، آية (٥٣).

أوضحته سابقاً ، وإيجاداً لدواعى الشكر بالبر والإحسان . فالمجتمع الذى تنبت فيه العواطف وينتشر فيه البر والإحسان والرحمة والحنان ، هو المجتمع الصالح السعيد ، ولا يتحقق كاملا إلا بالصيام ، مع أن فى الصوم حصانة من الشر ومن الوقوع فى الرذيلة ، كما ورد عنه صلى الله عليه وسلم : (إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع والصوم) رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد وأبو داود وغيرهم ، وكما رووا أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء). والوجاء هو تفتير الشهوة .

وبما أن عبودية الله لاتكمل إلا بتمام التسليم وكمال الانقياد والتنفيذ ، فما أظهر هذا التسليم والعبودية الكاملة فى الصوم كما مضى فى تحقيق الأمانة . والله الموفق .

وليعلم أن هذه الآية الكريمة (هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) وغيرها من قوله سبحانه (تلك آيات الكتاب المبين — قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين — قد جاءكم بينة من ربكم وشفاء لما فى الصدور) مما يوضح أن جميع القرآن آيات واضحات وعلامات كاشفة للحقيقة ليس فيها غموض أبداً .

وهذا مما يبطل مزاعم أهل الباطن الذين اختلقوا حديث (إن للقرآن باطن وللباطن باطن إلى سبعة أبطن) ، ويفسرون القرآن بغير المعروف المشهور من معناه ، ويزعمون أن علياً رضى الله عنه قال : لوشئت لأوقرت من تفسير الفاتحة كذا وكذا حمل بعير من علمنا الباطن . وهذا الحديث مكذوب على النبى صلى الله عليه وسلم باتفاق علماء الحديث ولم يرو بأى سند ، وكذلك الأثر عن على مكذوب قطعاً ، ولكن يروى عن الحسن البصرى موقوفاً أو مرسلا : إن لكل آية ظهراً وبطناً وحداً ومطلقاً ،وقد أشاع زنادقة المبتدعة

علم الظاهر وعلم الباطن بما ليس معروفاً فى عصر النبوة ولا فى عصر السلف الصالح وإنما هو من سر الماسونية اليهودية على يد أفراخها العبيديين بنى القداح اليهود الكذبة الذين انتحلوا الفاطمية فهم الذين تأولوا شرائع الإسلام وأبطلوا العمل بها . وقد فضحهم الإمام الغزالي وابن تيمية وغيرهما .

لقد أودع الله بالقرآن مايبنى الإنسانية بناء محكماً لايتصدع أبداً مادام هو الرباط الحديدى المعنوى المشتبك فيه ، ، لأنه أمد أهله بجميع عناصر القوة فى الحياة ، من القوة فى العقيدة ، والقوة فى الأخلاق ، والقوة فى العلم النافع بأنواعه الروحى والمادى ، والقوة فى المال ، والقوة فى التكاتف الاجتماعى ، والقوة فى الزحف الحربى المتواصل ، والقوة فى التنظيمات السلمية ، وأوجب عليهم بكل تحتيم وتشديد أن يرخصوا النفس والمال فى سبيل الدفع بالعقيدة والرسالة إلى الإمام ، فضلا عن الذود عنهما ، وجاء بتقويم الأخلاق وتحصينها من الانحلال .

وقد قرر التاريخ أنه ما ارتفعت أمة إلا بقوة أخلاقها واستقامتها فى سيرها وسلوكها واعتدالها فى تعقلها وتفكيرها وتقديسها للمعانى الروحية والقيم الروحية ، وما سقطت أمة إلا بفقد ذلك . والأمة المستكملة لعناصر القوة المذكورة هى التى يتماسك بنيانها ويرتفع شأنها وتعظم سيادتها ويرهب كيانها ، وعلى العكس فاقدة تلك العناصر ، فإنه لايعلو شأنها إلا على من هو أحط منها ، وكلما ابتليت بحرب تحطمت وانهارت ، وفى الوقت الذى تمسك المسلمون بالقرآن نجحوا أعظم نجاح فبهروا العقول .

ومن أعظم آثار وحى الله فى أهله ، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى جعلهم لايخافون فى الله لومة لائم ، فيأطرون السفهاء ويقومون أود السادات ويحوطونهم دائماً بما يخيفهم من قوارع النصح والتهديد المزعج لقلوبهم من عقوبات الله وإيضاح قيمتهم ومكانتهم . فلما انحرف المسلمون عن تعاليم

الوحى دب فيهم النفاق والمداهنة خوفاً من المخلوق وتهاوناً بالخالق العظيم ، حتى انعدمت شعيرة الأمر بالمعروف من مجتمعهم ، وماتت فيهم الغيرة على حرمات الله ، وانطفأت منهم جمرة الغضب لدين الله ، ففسدت أخلاقهم ، وقل العلم الصحيح فيهم، وأصبح الأمر لأدعياء العلم أو للأئمة المضلين، وصار التقى الفريد منزوياً أو مطموراً ، وبخلوا على الله بما أوجب عليهم بذله من النفس والمال ، وقد سبب عليهم بخلهم بذلك تسلط الأعداء عليهم من كل ناحية ، واللعب بمقدراتهم ردحاً من الزمن ، ولم يستقلوا إلا على حساب دينهم وأخلاقهم ، حيث هيأ المستعمر من يخلفه بحكم مخالف للدين ، بل كثير من المسلمين حكمتهم دول نصرانية بعد الاستعمار باسم الوطنية ، وصاروا يدفعون ضريبة الكنائس التى يتجمع منها أموال طائلة للقسس والرهبان الساعين ضد الإسلام . فهذا هو الثمن الغالى الذى دفعوه بالإعراض عن حمل رسالتهم وتوزيعهم هداية القرآن شحاً على الله بالمال والنفس ، فصار مالهم عوناً لأعدائهم، وصارت أنفسهم فى رق معنوى أفظع من كل رق حسى .

هذا وينبغى أن يعلم أن شهر رمضان حصل فيه ابتداء نزول القرآن ، وليس المقصود نزوله إلى اللوح المحفوظ ونزوله منه تدريجياً ، فإن القول بذلك يجعل بنى إسرائيل بمنزلة محمد صلى الله عليه وسلم لأن موسى تلقى الألواح من الله ، وهم تلقوها منه ، بل يكون بنو إسرائيل بمنزلة جبريل على هذا القول والعياذ بالله ، والله يقول (وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم)[1] .
فينبغى اعتقاد أن جبريل تلقى القرآن من الله وأوحاه إلى محمد صلى الله عليه وسلم رأساً وأنه لم يأخذه من اللوح المحفوظ ، وهذا لاينافى رواية ابن عباس لأن كل شيء ومقدور يكون فى اللوح المحفوظ ولا يلزم منه انحصار مهمة جبريل على الأخذ منه أبداً .

(١) سورة النمل، آية (٦)

روى البخارى ومسلم وغيرهما من أصحاب السنن والمسانيد عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان) . ورويا أيضاً عن أبى هريرة أن أعرابياً أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله دلنى على عمل إذا عملته دخلت الجنة . قال : تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان . قال : والذى نفسى بيده لا أزيد على هذا . فلما ولى قال النبى صلى الله عليه وسلم : من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا) .

قال المحققون فى هذا الحديث وأمثاله كحديث الأعرابى النجدى الذى قال الرسول عليه الصلاة والسلام فيه : (أفلح إن صدق) أنهم سألوا النبى صلى الله عليه وسلم فأجابهم عن المفروض من الإسلام فى وقت السؤال ، فصمموا على العمل به بصدق وإخلاص استحقوا به ماقاله النبى صلى الله عليه وسلم فيهم .

ومن كانت هذه حاله فلا بد أن يعمل بما يستجد من الشرائع ، كالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وإقامة الجهاد لنشر الدعوة ، وتحريم الزنى والخمر وغيره . فمن لم يعمل بما يستجد من الشرائع لم يكن مفلحاً ولا من أهل الجنة ، بل لايكون مسلماً حتى يمتثل جميع المأمورات دون إنكار أو انتقاص . فليس الأمر مقصوراً على ما ذكر فى الحديث .

وروى الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (قال الله عز وجل : كل عمل ابن آدم له ، الحسنة بعشر أمثالها ، إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به ، ترك طعامه وشرابه من أجلى ، والصيام جنة ، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ،

فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إنى صائم ، والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، للصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح ، وإذا لقى ربه فرح بصومه) .

وفى رواية مسلم : (كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال الله تعالى : إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به . .) .

وروى الشيخان عن سهل بن سعد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (إن فى الجنة باباً يقال له الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة ، لايدخل منه أحد غيرهم ، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد) .

وروى الشيخان أيضاً بسندهما إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال : (من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ماتقدم من ذنبه) .

هذا ما أحببت ذكره من الأحاديث الصحيحة فى الصيام بكل اختصار .
وقال الناظم محمد بن عبد القوى فى نظم الفقه :

وخذ باحتفاظ الصوم غير مقتصر ... عبادة سر ضد طبع معود
واصبر لفقد الإلف من حالة الصبا ... وفطم عن المألوف والمتعود
فثق فيه بالوعد العظيم من الذى ... له الصوم يجزى غير مخلف موعد
وحافظ على شهر الصيام فإنه ... لخامس أركان لدين محمد
تغلق أبواب الجحيم إذا أتى ... وتفتح أبواب الجنان لعبد
تزخرف جنات النعيم وحورها ... لأهل الرضا فيه وأهل التعبد
وقد خصه الله العظيم بليلة ... على ألف شهر فضلت فلترصد
فأرغم بأنف القاطع الشهر غافلا ... وأعظم بأجر المخلص المتقيد
فقم ليله واطوى نهارك صائماً ... وصن صومه عن كل موه ومسفد

* * *

قال تعالى : (وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَر يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا ٱللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [١٨٥]) من سورة البقرة.

فيه إعادة لذكر الرخصة بعد تحديد شهر رمضان الشريف الفاضل ، وتركيز عظمة منزلته فى قلوب المؤمنين ؛ بإنزال القرآن وتعظيم أمر الصوم المفروض ، والندب إلى التطوع به ، وإن صيام هذا الشهر محتم على القادرين الذين لارخصة لهم ، وإن الرخصة فيه غير محمودة ، بل تجشم الصيام خير منها فبعد هذا كله أعاد ذكر الرخصة لفائدتين :

(إحداهما) أن لايتوهم متوهم أن الفطر للمريض والمسافر خير وأولى اعتماداً على قوله سبحانه : (وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون) ، بل أعاد الأمر بالرخصة للتوكيد ، حتى لايجد المتقى لله حرجاً منها ، فقد كان بعض الصحابة رضوان الله عليهم يتحامون من الفطر فى السفر مع توكيد الرخصة ، حتى أنهم فى بعض الأسفار لم يمتثلوا تحرجاً من الإفطار بعد أمر النبى صلى الله عليه وسلم لهم حتى أفطر بنفسه ، وسمى الممتنع عن الإفطار عاصياً . كما ورد النص الذى أسلفناه بذلك ، فهذا من بعض أسرار التأكيد فى هذه الآية .

(ثانيهما) لئلا يتوهم متوهم أن الرخصة منسوخة . ولهذا جاء بالتأكيد الآخر بقوله تعالى : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) يعنى يريد الله أن ييسر عليكم طريق الوصول إلى طاعته ورضوانه لتفوزوا بنيل ماوعدكم به من صنوف النعيم ، بجنانه ، فيسهل عليكم شرائعه أحسن تسهيل بحيث لايجد المسلم المؤمن حرجاً فى أدائها ، وإذا حصل إثقال بعضها لسبب من العوارض الموجبة سهله تسهيلا آخر ، إما باسقاطه أو تخفيفه ، كما هو مفصل فى أبوابه من فقه الأحكام فى جميع الكتب المختصة بذلك .

فى هذه الجملة من الآية الكريمة تعليل لماقبله يتضمن أن الله يريد فيما شرعه من هذه الرخصة فى الصيام وغيره مما يشرعه لكم من جميع الأحكام أن يكون دينكم يسراً كله لاعسر فيه ، وفى هذا التعبير القرآنى ضرب من الترغيب فى إتيان الرخصة ، ولا عجب فى ذلك فقد ورد الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إن الله يحب أن تؤتى رخصة كما يحب أن تؤتى عزائمه).

وفى هذه الآية من بديع التركيب والتعبير مايشهد بإعجاز القرآن ، وأنه منزل من الله على محمد عليه الصلاة والسلام ، فإن الفاء فى قوله (فمن) وقعت جواب الشرط مفصلة لما أجمله الله فى قوله (شهر رمضان) من وجوب التعظيم المستفاد منه وجوب الصوم على كل مدرك لرمضان من حاضر ومسافر ، و (من) هنا لدفع توهم التعميم ، أى فمن كان حاضراً فليصم ، إذ لا يحسن أن يقال (من علم الهلال فليصم – وشهد من الشهود والتركيب يدل على الحضور إما ذاتاً، أى علمه بنفسه أو علماً جاءه خبره كما مضى تفصيله، و (الشهر) للعهد ووضع المظهر موضع المضمر للتعظيم . والمفعول به متروك لعدم تعلق الفرض به ، إذ تقدير البلد أو المصر ليس بشىء . ونصب الضمير المتصل فى (فليصمه) على الاتساع لأن صام لازم . والمعنى : فمن حضر فى الشهر أو من علم بهلال الشهر وتيقن وهو مقيم غير مسافر فليصم .

ومن الفقه فى هذه الآية أن من شك فى الهلال لوجود حائل فالصوم لايجب عليه بل يمنع منه ، كما قال الأكثر ، أو يباح احتياطاً كما صامه بعض الصحابة ، وجوزه النعمان والشيخ ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ونحوهم ، وتكرير الرخصة للمريض والمسافر فى هذه الأمة للتخصيص ودفع الإيهام ، وذلك أن الله لايريد إعنات العباد والإشقاق عليهم بأحكامه ، فالآية مشعرة بأفضلية الصيام لمن لم يلحقه مشقة أو عسر فى المرض والسفر ، ومن يكون الصوم عليه مع الناس أهون وأسهل من كلفة قضائه وقت إفطار الناس بعد

رمضان لانتفاء علة الرخصة فى حق هذا وذاك ، أما من يحصل عليه مشقة فالفطر أفضل فى حقه ، وكذلك المجاهد الذى يتقوى بفطره على الجهاد المقبل عليه أو الذى هو متلبس فيه .

يريد الله بكم اليسر

وقد حصل فى هذا الزمان حاجة جديدة للإفطار ، وهى فى حق الذين ، يتدربون على قيادة الطائرات الحربية ويمنعهم واجب التعليم من الإفطار ، فهؤلاء قد حصل لهم فتوى بالإفطار من بعض الجهات الدينية . والأولى أن يقصر الحكم على الحاجة الصحيحة الحاضرة الملحة . فإذا كان التدريب فى وقت حرب تحتاج فيه القيادة الإسلامية إلى المزيد من الطيارين المسلمين أو على تخوف من مباغتة العدو تخوفاً له مبرراته ، جاز للمتعلمين الإفطار بالتزام القضاء وقت العطلة أو وقت الأمن والراحة .

أما إذا كان التعليم للاستعداد والاحتياط فيجب على قيادة الطيران أو القيادة الحربية العامة إعفاء الطلاب من التعليم فى شهر رمضان تعظيماً له واحتراماً لفريضة الصوم، وصيانة له من الجناية عليه بإفطار ليس ضرورياً، ولا يجوز للعلماء التساهل فى حقوق الله بجانب ما يسمى حق الوطن أو الشعب أو حق العلم (بفتح اللام) فإن الله جعل فى الصيام تربية روحية عظيمة تفوق ما يحصل عليه الطالب من التربية المادية أضعاف الأضعاف .

وعلى ولاة المسلمين أن يهتموا بأمورهم الدينية غاية الاهتمام ويؤثرونها على الأمور الأخرى ، وأن يحترموا أوقات العبادة من صلاة وصيام فيخضعوا لهابرامج التعليم مهما كانت ،ولا يخضعونها هى لبرامج التعليم ، اقتداء بمن ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، بل يجعلون الدين هو الركيزة الأساسية ، والذى له الأولوية فى كل شىء ، ليحققوا الإستجابة لله ، فيتأهلوا لاستمطار نصر الله ومدده .

هذا وينبغي أن يعلم الفرق بين الإرادتين : الإرادة الكونية والإرادة الشرعية . فالإرادة الكونية هي إرادة القضاء والتكوين ، وهذه إرادة لا بد من حصولها فى كل مخلوق مربوب لله . أما الإرادة الشرعية فهى إرادة الأمر والتشريع ، ومن هذا الباب قوله تعالى : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) يعنى أن حكمته التشريعية اقتضت تسهيل التكاليف على العباد تيسيراً لهم لطريق الوصول إليه، فبنى تكاليفه على الحكمة والرحمة ويسرها عليهم وجعل ثواب الحسنة عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة حسب صدق فاعلها فى نشاطه وطيب نفسه وإخلاصه ، واستصغاره لما يفعل ، واحتقاره ، وحسب موقع الفعل ، كبرد الماء فى الوضوء ، وطول الطريق إلى المسجد ، وقوة الخشوع فى الصلاة ، وطول انتظارها ، وتجشم الوحل والبرد فى سبيلها ، وحسب سماحة نفس المتصدق وبعده عن الرياء والسمعة ، والمنة فى الصدقة ، وحسب موقعها من الحاجة فى المدفوعة إليه ، وحسب شدة البرد أو الحر فى الصيام ، وطيب نفسه واحتسابه ، وحسب طيب نفس الحاج وطهارة ماله من الحرام ، وعدم الرفث والأذى ، ومبلغ نفعه للمسلمين فى حجه ، وغير ذلك .

وأما قوله سبحانه : (ولا يريد بكم العسر) فهذا أيضاً من إرادته الشرعية ورحمته بعباده أن بنى شريعته على اليسر الموصل إليه ولطف بعباده عن التشريع العسير الذى يقطعهم من الوصول إليه أو ينقص من درجاتهم لديه ، وهذا كقوله تعالى : (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) . وقوله : (لايكلف الله نفساً إلا وسعها) . وقوله صلى الله عليه وسلم : « يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا » . إلخ .

وقوله تعالى : (ولتكملوا العدة) بتخفيف الميم على قراءة الأكثرين ، أو تشديدها على قراءة عاصم من طريق أبى بكر بن عياش ، فالمقصود بها التكميل على القراءتين واللام للتعليل ، فهى معطوفة على التعليل السابق المستفاد

من قوله تعالى : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) يعنى أن ماحصل من التخفيف عليكم فى أمر الصيام هو لأجل أن تكملوا العدة ، فمن لم يكملها أداء فى وقتها قام بتكميلها قضاء من أيام أخرى ، فيكون إكمالكم لها فى حالة يسر واطمئنان وانشراح صدر ، فتحصلوا على بركة الصيام وخيراته المعنوية من تهذيب النفس وتربيتها بما يزكيها وينفعها ، ومن تحصيل الأجور العظيمةعند الله بهذا الإكمال الميسر ،ولا يفوتكم شيء من بركاتهولا منأجوره .

وهذه نعمة عظيمة من نعم الله عليكم بتيسير التكليف وتوفيقكم إلى فعله والخروج منه ببراءة ذمة وإحسان فى العمل ، ولهذا قال سبحانه وتعالى : (لعلكم تشكرون) ، لأن أداء الصوم على مايقتضيه الشرع ، كما أسلفنا تفصيله ، يربى على تحقيق الشكر والقيام به .

ومن مبادئ الشكر تكبير الله ، ولذا جاءت به الآية قبله فى قوله : (ولتكبروا الله على ماهداكم) أى تكبروه بجميع معانى التكبير على ماهداكم للإيمان به ، وبسر عليكم شرائع دينه ، ووفقكم لطاعته ، فإن تيسير التشريع من الله معونة على طاعته ، فهى نعمة عظيمة يستحق عليها الشكر الذى من موجباته التكبير الصادق ، وهو الذى يصدر من القلب قبل اللسان ، وتصدقه الجوارح ، وليس التكبير مجرد النطق باللسان من ذكر وحمد وتعظيم ، وإنما التكبير المطلوب النافع هو تكبير الله بالحب والتعظيم فى القلب ، بأن ينحشى من حب الله وتعظيمه ، فلا يكون فيه محل ولا فراغ لحب فلان وعلان ، ولا يشاركه فيه حب شهوة أو معشوق ، بل تقوده محبة الله إلى محبة كل ما يحبه الله من شخص أو عمل ، وبغض مايبغضه الله من شخص أو عمل ، والتلذذ بطاعته والتشرف بتنفيذ أوامره ، والمسارعة فيما يرضيه . فالتكبير القلبى يتكون منه التكبير العملى ، ثم التكبير القولى بالحمد والتسبيح ، فيكون لسان المؤمن رطباً من ذكر الله ، وقلبه منطبعاً بتكبير الله تكبير محبة وتعظيم .

بحيث لا يرى أحداً أكبر من الله سبحانه ولا أعظم . وبهذا لايخشى إلا الله ، ولا يرهب من سواه أبداً مهما كان ، فيكون قلبه مصدقاً لما ينطق به لسانه ، وبذلك يكون صلباً فى عقيدته، قوياً فى إرادته، وإلا فما الفائدة من التكبير؟ نعم ما الفائدة من التكبير المقصور على اللسان تقليداً موروثاً ؟ ينبغى للمسلمين أن يكبروا تكبيراً قلبياً صحيحاً تتفجر به طاقاتهم فى العمل المرضى لله من حمل رسالته وتوزيع هدايته ، وبذل النفس والنفيس للدفع برسالة الله إلى الأمام بصدق وإخلاص ، وطهارة قلوب وجوارح :

وهنالك يصعقون عدوهم بالتكبير ، ويزلزلونه من حصونه ، فيقيمون حكم الله فى جميع أصقاع الأرض ، بدلا من حالتهم التعيسة الآن ، عليهم أن يرعوا أمانة الله حق رعايتها ، وأن لا يبدلوا نعمة الرسالة كفراً بالانصراف عنها إلى غيرها من المبادئ الأرضية والمذاهب المادية .

فقوله تعالى : (ولعلكم تشكرون) تعليل آخر لحكمة الصيام والتخفيف فيه ، لأن أداءه على الوجه المطلوب خير حافز على الشكر العملى الذى هو القيام بواجب الرسالة بعد التمسك بحقيقة الهداية ، وقد سبق أن لفظة (لعل) للترجى الذى لايكون إلا فيما جرت أسبابه ، وحيث أن أداء الصيام على حقيقته المطلوبة يصقل القلوب ، ويهذب النفوس ، ويقوى فيها الإرادة وصدق العزيمة ، جاء طلب الشكر من الصائمين بهذه الصيغة

ولهذا جاء الأسلوب القرآنى بهذا التغيير للإشارة إلى أن هذا المطلوب بمنزلة المرجو لقوة الأسباب المتآخذة فى حصوله . فى آخر هذه الآية الكريمة نوع من اللف لطيف المسلك قل من يهتدى إليه ، ولهذا قال بعضهم عن الواو إنها زائدة .

والحاصل أن الشكر المطلوب منا هو الشكر العملى أو الشكر الكامل ،

وهو الواجب الصحيح ، كما قدمنا من أنه يكون بالقلب والجوارح جميعها واللسان ، ويكاد الشكر أن يكون هو الدين كله ، كما قال تعالى : (فاذكروني أذكركم وأشكروا لي ولا تكفرون)[1]. فشكر الله له أعظم المساس بأصل الأصول وأكبرها إلى أصغر الفروع وأدقها ، إذ أن أصل الشكر وقوامه تجريد التوحيد لله بإخلاص المحبة ، والتعظيم الموجب لطاعته ، وتعظيم شعائره ، وإقامة حدوده ، وتنفيذ شريعته ، وحصر الحاكمية له باعتباره الإله الملك المطاع ، ووصفه بصفات الكمال ، وتنزيهه عن مشابهة خالقه في أي صفة وميلاد وعدم التقدم عليه وعلى رسوله بأي رأي أو تشريع ، وحصر الحب والموالاة له وفي سبيله ، والبغض والمعاداة من أجله ، تحقيقاً لمحبته ومرضاته ، وجعل الأولوية في الحب لله ورسوله على المحبوبات الثمانية من الآباء والأبناء والأزواج والإخوان والعشيرة والأموال والتجارة والأوطان ، لأن من كان حبه لشيء من ذلك فوق حب الله ورسوله انصرف قلبه إليها وكان عمله لها ومجهوده في سبيلها ، فيكون مشركاً في العمل لغير الله ، غير شاكر له ، لأنه قد جعل مافضله في المحبة من هذه الأصناف ولياً من دون الله يحب من أجله ما شاء ، ولو كان عدواً لله كالنصارى واليهود وأنواع الملاحدة ويواليهم على حساب دين الله، كما يعادي من شاء ولو من المسلمين أولياء الله، ويكون بذله ومجهوده الحربي من أجل أحد هذه الأصناف المنصوص عليها في الآية ٢٤ من سورة التوبة ، فما أبعده عن الشكر ، وأما في الفروع فيكون متبعاً لهواه في أي شأن من شؤون حياته ، فإذا لم يكتسب الشكر من أداء الصوم كان مفلساً والعياذ بالله .

الصيام الصحيح فرصة لاستجابة الدعاء

قال تعالى : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ

(١) سورة البقرة، آية ١٥٢.

إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُون [١٨٦]) من سورة البقرة.

هذا إخبار من الله سبحانه عن قربه من عباده القرب اللائق بجلاله الذى وردت النصوص بإثباته ، وهو نوعان :

(أحدهما) القرب من جميع خلقه بعلمه المحيط بهم ورقابته على جميع أحوالهم ، فهو الرقيب على الخواطر واللواحظ ، وهو العليم المحيط علمه بكل شيء (عالم الغيب والشهادة – يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) ، فهو سبحانه بعلمه أقرب إلى الإنسان من حبل وريده ، كما قال تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) . وكما قال : (ألم تر أن الله يعلم مافى السموات ومافى الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا وهو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا)[1] يعنى بعلمه المحيط بكل شيء ، الشامل لكل شيء . ولهذا ختم الآية بقوله : (ثم ينبؤهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شيء عليم) .

و (ثانيهما) قربه من عابديه وداعيه بالمعونة والتوفيق والإجابة ، كما ورد فى الحديث القدسى الصحيح : (ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذ بى لأعيذنه) .

وفى الحديث القدسى الآخر : (ومن تقرب منى شبراً تقربت منه ذراعاً،

---

(١) سورة المجادلة، آية (٧).

ومن تقرب إلى ذراعاً تقربت منه باعاً ، ومن أتانى يمشى أتيته هرولة) . فهذا من قرب المعونة والتسديد واللطف والتوفيق ، وليس شيء منهما قرب مكان كما توهمه المشبهة أو فرت منه الجهمية وفروعها خشية اعتقاد التجسيم والتحيز ونحوه من مصطلحات المنطق اليونانى الذى لايجوز التعويل عليه ، فضلا عن إخضاع النصوص له والعياذ بالله .

ولما كان فى الصيام إعداد لذكر الله وشكره ، والتقرب إليه بمزيد الطاعات ، والضراعة إليه بالدعاء لقوة الرجاء ، ناسب أن يأتى الله العليم الحكيم بهذه الآية فى غضون آيات الصيام كجواب عن سؤال يتوقعه الداعى الملح بالدعاء طلباً لسرعة الإجابة ، فكانت واقعة في محلها ، سواء صح ماورد فى أسباب نزولها أم لا ، وذلك لقوة ارتباطها بحالة الصوم والصائمين . ولا يخفى ما فيها من التشريف والرفعة لسيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم لتوجيه الخطاب إليه .

وروى ابن جرير وابن أبى حاتم وغيرهما فى سبب نزول هذه الآية أن أعرابياً جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه . فسكت عنه . فأنزل الله عليه الآية : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع . .) .

وأخرج عبد الرزاق عن الحسن قال : سأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين ربنا ؟ فنزلت . ورووا غير ذلك مما أعرضنا عنه لضعف سنده جداً . وصدور هذا السؤال من الصحابة بعيد . أما صدوره من الأعراب فليس ببعيد ، لأنهم اعتادوا جعل وسائل ووسائط بينهم وبين الله ، إما أشخاص وإما تماثيل أشخاص كالأصنام يزعمون أنها تقربهم إلى الله زلفى ، ولم يهتدوا بأنفسهم إلى التجرد لمعرفة الإله العظيم الذى لا يحتاج عباده فى الضراعة إليه وطلب شيء من رحمته إلى وسائط ، بل هو السميع لأصواتهم على

اختلاف لغاتهم ولهجاتهم ، وهو العليم بسرائر أحوالهم وخفاياها ، فهم لايعلمون بهذا حتى هداهم الله بوحيه المبارك إليه .

ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع المسلمين فى غزوة خيبر يدعون الله بأصوات عالية ، فقال لهم : (أربعوا على أنفسكم فإنكم لاتدعون أصم ولا غائباً) .

وعلى كل حال فإن هذه الآية الكريمة تفيد بأن طواعية الله والاستجابة لأوامره بصدق وإخلاص سبب عظيم من أسباب قبول الدعاء ، لأن ذلك يستجلب القرب المعنوى من الله ، كما أنها أيضاً تفيد حكماً شرعياً آخر وهو عدم رفع الصوت بالدعاء ، وفى أى عبادة ، إلا بالمقدار الذى حدده الشارع فى الصلاة الجهرية بدون مبالغة إلا لحاجة .

وقد روى الإمام أحمد والبخارى ومسلم وأصحاب السنن من عدة طرق إلى أبى عثمان النهدى عن أبى موسى قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فى سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لاتدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم) . وفى رواية أخرى أنهم كانوا يرفعون أصواتهم بالتهليل والتكبير إذا علو عقبة أو ثنية .

ولا ريب أن الدعاء من أنفع الأدوية وأسرعها فرحاً ونجاحاً ، وهو عدو البلاء ، يدافعه ويعالجه حتى يمنع نزوله أحياناً ، وأحياناً يخفف وطأته أو يرفعه بالكلية إذا نزل ، وهو من أقوى الأسلحة المعنوية للمؤمنين ، فقد روى الحاكم فيما صححه عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض) .

وقد ثبت بالاستقراء أن له مع البلايا والمصائب ثلاث حالات :

(أحدها) أن يكون أقوى منها فيدفعها وذلك كدعاء المضطر الخائف الضرير الوجل المشفق المخلص المحقق لطاعة الله ، المنزه من معاصى الله ، فإن أدعيته سهام نافذة صائبة تقضى على كل بلاء ومصيبة .

(ثانيها) أن يكون الدعاء أضعف من البلاء لضعف حال صاحبه فى شىء مما ذكرناه ، فلا تكون فيه المقاومة الكافية لدفع البلاء والمصيبة ، ولكنه يخفف وطأتها .

(ثالثها) أن يكون موازياً للبلاء ، فيتقاومان ويمنع كل واحد منهما صاحبه ، وهذه الحالة الوسطى . ومن المرغب فيه والمجرب نفعه الإلحاح فى الدعاء ، فقد ذكر الأوزاعى عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله يحب الملحين فى الدعاء) . وروى ابن ماجة فى سننه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من لم يسأل الله يغضب عليه) . وهذا من عظيم رحمته وجوده بخلاف البشر المخلوق . كما أحسن الشاعر قوله :

الله يغضب إن تركت سؤاله وبنى آدم حين يسأل يغضب

وروى الحاكم فى صحيحه من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يغنى حذر من قدر ، والدعاء ينفع بما نزل ومما لم ينزل ، وإن البلاء لينزل فيتلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة) .

وأخرج أيضاً من حديث ثوبان عن النبى صلى الله عليه وسلم : (لايرد القدر إلا الدعاء ، ولايزيد فى العمر إلا البر ، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه) . وأخرجه أيضاً من حديث أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم :

(لا تجزعوا فى الدعاء فإنه لايهلك مع الدعاء أحد) .

وينبغى أن يعلم أن الأدعية والتعاويذ بمنزلة السلاح ، ليس تأثيره بذاته فقط وإنما تأثيره بقوة مستعمله ومعرفته بحقيقة الاستعمال ، ودون ذلك لاينفع أو يكون نفعه ضعيفاً ، فمتى كان السلاح سلاحاً تاماً صالحاً لاعيب فيه وكان ساعد الحامل له قوياً وجنانه أقوى من ساعده برباطة جأشه وثبات عزيمته ولم يحصل مانع يحول دون نفوذه ، كان السلاح مجدياً نافعاً لتوفر أسباب مفعوله وفقدان المانع منه ، ومتى تخلف واحد من ذلك أو وجد المانع من نفوذ السلاح فقد بطل مفعوله : وهكذا الدعاء إن كان صالحاً فى نفسه والداعى قد جمع بين قلبه ولسانه فى الضراعة والخشوع وقوة التعلق بالله وصدق اللجوء إليه وحسن العلاقة مع الله بالإخلاص فى المقاصد وصلاح الأعمال والتوبة النصوح أو تقديم حسنة أو صدقة ولم يحصل مانع للقبول من الإصرار على ذنب أو أكل حرام أو تلبس بمظلمة فإنه يكون نافعاً ناجحاً . وإن خلا من الضراعة الصحيحة وصدق اللجوء وحسن العلاقة وصدق التوبة أوحصلت موانع الإجابة تخلفت منفعة الدعاء .

ولهذا كان بعض الداعين لله عند بعض القبور يستجاب لهم لما خالطهم من الذل والضراعة وصدق اللجوء إلى الله ونحو ذلك ، فيظن المستجاب له أنه بتأثير القبر ، وليس الأمر على ظنه ، بل لوحصلت له هذه الحالة فى المسجد لانتفع بالدعاء انتفاعاً أعظم وحصلت له فضيلة أكبر . وكذلك يظن بعض الناس إذا رآى الاستجابة لبعض الداعين بأنواع الدعوات أن السر فى الإجابة من ألفاظ تلك الدعوات ، فيدعو بها مجردة عن تلك الأمور التى قارنتها من الداعى غفلة منه عن السر الحقيقى الذى ذكرناه من ضرورة مقارنة تلك الأمور ، فإذا لم يحصل له الإجابة التى حصلت لذاك أصابه

الجزع والهلع والأوهام الباطلة لقلة فهمه بأسباب الإجابة ، وجهله بغفلة قلبه ، وعدم إقباله على الله ، وجمع همته عليه ، وعدم الخضوع والتملق أو عدم طهارة قلبه وجوارحه لله تعالى ، ونحو ذلك من موجبات الإجابةوعدم موانعها .

ولهذا قال سبحانه وتعالى : (فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) لأن الاستجابة لله يجب أن تتحقق ، والإيمان الصحيح بالله يجب أن يحصل . وقد قال تعالى : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) فحصول الإيمان الصحيح والاستجابة لأوامر الله من ضروريات إجابة الدعاء فى أغلب الأحوال ، وإن كان الله قد يلطف بالكافر الجاهل إذا دعاه مضطراً صادق الضراعة .

وقد حصل هذا فعلا واعترفت به أوساط عليه ، لأن كثيراً من الكفار ساروا في كفرهم على جهل وتقليد وقوة فتنة فكرية وتقصير من دعاة الإسلام أو من المسئولين عن الإسلام والتأليف عليه ، ولم يكن كفرهم عن عناد وجحود واستكبار ، فإن الله يحب دعوة المضطر منهم حسب ما اقتضته حكمته ورحمته .

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل بي كرب أن أقول : (لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم والحمد لله رب العالمين) .

وفى مسنده أيضاً من حديث ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال : اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فىَّ حكمك ، عدل فىَّ قضاؤك ، أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ،

أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى ، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحاً . فقيل : يارسول الله ألا نتعلمها قال : بل ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها) .

وعن ابن عباس مرفوعاً : (من كثرت همومه وغمومه فليكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله) . وثبت فى الصحيحين أنها كنز من كنوز الجنة . وفى الترمذى أنهـا باب من أبواب الجنة .

وهذه الأدعية العظيمة فيها عدة فوائد :

(أحدها) إثبات توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية لله بما اشتملت عليه من اعتراف الداعى بالعبودية لله هو وأسلافه .

(ثانيها) التوحيد العلمى الاعتقادى بما اشتملت من حصر الحكم لله وأن نواصى الخلق بيده سبحانه .

(ثالثها) تنزيه الله تعالى عن الظلم وأنه لايأخذ أحداً بلا زلة ولا تجرى عقوبة بلاسبب .ويدخل فى هذا .

(رابعها) وهو اعتراف السائل بأنه الظالم حيث قال (عدل فىَّ قضاؤك).

(خامسها) الاعتراف لله بكمال القدرة والإرادة والنفوذ بقول السائل : (ماض فىَّ حكمك) .

(سادسها) التوسل إلى الله بأحب الأشياء إليه من أسمائه وصفاته المعلومة والخفية .

(سابعها) حصر الاستعانة به سبحانه واللجوء إليه وحده .

(ثامنها) حصر الرجاء والرغبة إليه دون ما سواه .

(تاسعها) تحقيق التوكل إليه وتفويض الأمر إليه .

(عاشرها) قصر علاجه على القرآن الذى هو أفضل ماتقرب المتقربون به إلى الله طالباً منه ألا يجعل قلبه يرتع إلا فى رياض القرآن، ويجعل القرآن لقلبه كالربيع للحيوان ، مستغنياً بشفاء القرآن عما سواه ، طالباً من الله أن يجعله نور قلبه الذى يستضيئ به فى ظلمات الشبهات والشهوات لينجو من مهاويها ، وأن يتسلى به عن كل فائت ، ويتعزى به عن كل مصيبة ، لينجلى حزنه وغمه ، وأن يأنس بربيعه حتى لاتساوره الهموم على المستقبل من شأنه ، فلا عجب إذا استجاب الله له وأذهب عنه الغم والهم والحزن وأبدله مكان ذلك فرحاً .

(حادى عشرها) البراءة من الحول والقوة، وتفويضهما إلى الله ، لأنهما بيده يمد بهما من يشاء ، وصاحب هذا المقام يستحق العون والمدد من الله .

وفى الحقيقة إن الإنسان ذو الحياة القلبية إذا قابل بين ضيق الكرب وسعة هذه الأوصاف التى تضمنها دعاء الكرب وجدها فى غاية المناسبة لتفريج هذا الضيق وخروج القلب منه إلى سعة البهجة والسرور . قال ابن القيم رحمه الله : وهذه الأمور إنما يصدق بها من أشرقت فيه أنوارها وباشر قلبه حقائقها. انتهى .

وفى جامع الترمذى وصحيح الحاكم من حديث سعد بن أبى وقاص عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (دعوة ذى النون إذ دعا وهو فى بطن الحوت « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » أنه لم يدع بها مسلم فى شيء قط إلا استجاب الله له) . قال الترمذى : حديث صحيح .

وفى صحيح الحاكم أيضاً عنه أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : (هل أدلكم على اسم الله الأعظم: دعاء يونس . فقال رجل : يارسول الله هل كان ليونس خاصة ؟ فقال : ألا تسمع قوله تعالى : فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين) . فأيما مسلم دعا بها فى مرضه أربعين مرة

فمات في مرضه ذلك أعطى أجر شهيد ، وإن برئ برئ مغفوراً له) .

وفى جامع الترمذى من حديث أنس بن مالك قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا كربه أمر قال : (ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث) . قال ابن القيم : وفى تأثير قوله : ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث فى دفع هذا الداء — داء الكرب — مناسبة بديعة ، فإن صفة الحياة متضمنة لجميع صفات الكمال مستلزمة لها ، وصفة القيومية متضمنة لجميع صفات الأفعال . ولهذا كان اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ، هو اسم الحى القيوم ، والحياة التامة تضاد جميع الأسقام والآلام . ولهذا لما كملت حياة أهل الجنة لم يلحقهم هم ولا غم ولا حزن ولا شيء من الآفات . ونقصان الحياة يضر بالأفعال وينافى القيومية . فكمال القيومية لكمال الحياة . فالحى المطلق التام لايفوته صفة الكمال البتة ، والقيوم لايتعذر عليه فعل البتة . فالتوسل بصفة الحياة والقيومية له تأثير فى إزالة ما يضاد الحياة ويضر بالأفعال . إلى أن قال : والمقصود أن لاسم الحى القيوم تأثيراً خاصاً فى إجابة الدعوات وكشف الكربات .

وفى السنن وصحيح ابن أبى حاتم مرفوعاً : اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين : « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم» . وفاتحة آل عمران : « ألم الله لا إله إلا هو الحى القيوم » والتوسل إليه سبحانه بتوحيده مما له تأثير قوى فى دفع داء الكرب والهم والحزن ، وكذلك قوله : « الله ربى لا أشرك به أحداً » كما فى حديث أسماء بنت عميس عند أبى داود .

وأما حديث ابن مسعود المتقدم ففيه من المعارف الإلهية وأسرار العبودية مالا يتسع له كتاب ، فإنه يتضمن الاعتراف من الداعى بعبوديته وعبودية آبائه وأمهاته وأن ناصيته بيده يصرفها كيف يشاء فلا يملك العبد دونه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، لأن من ناصيته بيد غيره فليس إليه

شيء من أمره ، بل هو عان فى قبضته ، ذليل تحت سلطانه وقهره . وقوله : « ماض فى حكمك ، عدل فى قضاؤك » متضمن لأصلين عظيمين عليهما مدار التوحيد .

(أحدهما) إثبات القدر وأن أحكام الرب تعالى نافذة فى عبده ماضية فيه ، لا انفكاك له عنها ولا حيلة له فى دفعها .

(ثانيهما) أنه سبحانه فى هذه الأحكام غير ظالم لعبده ، بل لا يخرج . عن موجب العدل والإحسان ، فإن الظلم سببه حاجة الظالم أو جهله أوسفهه ، فيستقبح صدوره ممن هو بكل شيء عليم ، ومن هو غنى عن كل شيء ، وكل شيء فقير إليه ، وهو أحكم الحاكمين . انتهى باختصار .

ووجه تأثير الدعاء الذى هو الدواء الروحى للأمراض الحسية هو أن الله فى خلقته لابن آدم جعل لكل عضو من أعضائه كمالا إذا فقده أحس بالألم ، وخص ملكها وهو القلب بكمال روحى إذا فقده حضرته أسقامه وآلامه من الهموم والغموم والأحزان . فالعين إذا فقدت ماخلقت له من قوة الإبصار فقدت كمالها ، وكذلك الأذن واللسان .

فالقلب خلقه الله لمعرفته ومحبته وصحة توحيده والسرور به ، والابتهاج بحبه والرضى عنه ، والتوكل عليه ، والحب فيه ، والموالاة فيه ، والبغض فيه، والمعاداة من أجله ، ودوام ذكره سبحانه وتعالى ، وأن يكون أحب إليه مما سواه ، وأرجى عنده من كل ما سواه ، وأجل فى قلبه من كل ماسواه ، فلا نعيم له ولا لذة ولا سرور بل ولا حياة إلا بذلك ، وهذا له بمنزلة الغذاء والصحة والحياة الروحية ، فإذا فقد ذلك انتابته الهموم والغموم ، وخيمت عليه الأحزان ، حتى يكون كالمرتهن فيها ، وأعظم أمراض القلب هى الشرك والذنوب والغفلة ، والاستهانة بمحبوبات الله ومراضيه ، وترك

التفويض إليه ، وقلة الاعتماد عليه ، والسخط على مقدوره ، والشك فى وعده ووعيده ، والركون إلى سواه .

فهذه أمراضه الروحية ولا علاج لها سوى ما أرشد إليه المصطفى صلى‌الله عليه وسلم فى الأحاديث السابقة المحتوية على محض التوحيد الذى فصلناه مما يفتح للقلب أبواب الخير والسرور واللذة والفرح ، وفى مضمونها التوبة الصادقة التى تستفرغ ماحل بالقلب من أنواع الغزو الفكرى الذى يركزه فيه شياطين الجن وشياطين الإنس من صنوف الشبهات والشهوات التى تجلب القلق والاضطراب للقلب ، فهي أضر عليه من الأخلاط والمواد الفاسدة فى البدن ولا يستفرغها منه إلا صدق الضراعة إلى الله بهذه الدعوات النبوية ، فهى تغلق عنه أبواب الشر وتفتح له باب السعادة والخير بخالص التوحيد الذى يربطه بالله ويقصر همته على الذكر والتوبة والاستغفار .

فى سنن أبى داود عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لايحتسب) . وقال ثابت بن قرة : (راحة الجسم فى قلة الطعام ، وراحة الروح فى قلة الآثام ، وراحة اللسان فى قلة الكلام ، والذنوب للقلب بمنزلة السموم للبدن إن لم تهلكه أضعفته ــ فالهوى من أكبر أمراض القلب التى تجلب على البدن أنواعاً من الأمراض أيضاً ، ومخالفة الهوى ومحاربته من أعظم الأدوية للروح والقلب .

وقد جبلت النفس على الظلم والجهل ، فهى لجهلها وظلمها الذى هو تقصيرها فى حق ربها تظن شفاءها فى اتباع أهوائها والأمر بالعكس ، ولا نجاة لها أبداً إلا بمحاربة الهوى ، وذلك لايحصل إلا بالتوحيد القوى الذى يعمر القلب بتقوى الله ويحصنه بصدق محبته وإجلاله وتعظيمه ، فإن محبة الله خير حارس للقلب ، وحافظ له من غزو محبة غيره . وصدق المؤمن فى حب الله يجعله يعامله معاملة المحب الصادق لحبيبه وبذلك يحصل على النجاة والفلاح .

وهنا سؤال عن الدعاء يشغب به بعض الجهال ، وهو أن الذى يطلبه الداعى إن كان مقدراً فلا بد من وقوعه ، سواء دعا به العبد أو لم يدع ، وإن لم يكن مقدراً لم يقع مهما دعا به الداعى .

وهذا السؤال جهل وغلط ، إذ لو صح لتعطلت جميع الأسباب وقياسه على السائل يكشف عنه أنه أجهل من أي جاهل ، إذ طرد سؤاله أنه لا يسعى للأكل والشرب مادام الشبع والريّ قد قدره الله له ، ولا يتزوج مادام الولد مقدراً له . وهكذا لايحتاج إلى عمل نتيجته مقدرة . فأى ضلال أفظع من هذا ؟

وقد أجاب البعض عن هذا السؤال بأجوبة غير كافية . والصواب أن هذا المقدور الذى يحتج به السائل قدره الله بأسباب من جملتها الدعاء ، فلم يقدر الله شيئاً مجرداً عن سببه . فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور ، وإذا لم يأت به انتفى وقوعه أو تخلف حتى يأتى بالسبب . وهذا كما قدر الشبع والرى بالأكل والشرب ، وكما قدر الولد بالنكاح والزرع بالبذر والسقى ، وقدر الشفاء بأخذ الأدوية الروحية أو المادية ، وكما قدر النصر بمحاربة الأعداء مع الصبر والثبات .

وهكذا ، فالدعاء من أقوى الأسباب التى ربط الله حصولها بالدعاء ، بل يجعله أحياناً يصارع القدر كما يصارع المحارب عدوه .

وإذا كان وقوع المدعو به مقدراً بالدعاء لم يصح أن يقال لافائدة فى الدعاء ، كما لا يصح أن يقال لافائدة فى الأكل والشرب وسائر الحركات والأعمال ، ولهذا كان الصحابة الذين هم أعلم الأمة هم أقوم الناس بالدعاء وأحفظهم لشروطه وآدابه ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يستنصر على عدوه بالدعاء ، ويوصى جنده بذلك قائلا لهم : (لستم تنصرون بكثرة وإنما تنصرون من السماء . وكان يقول : إنى لا أحمل هم الإجابة ولكن أحمل هم الدعاء

هذا وإن للدعاء شروطاً وآداباً وموانع سأذكر ما يوفقنى الله إليه منها :

(فالأول) أن يكون الداعى لله على طهارة ظاهرة وباطنة .

(الثاني) أن يكون مستقبلاً القبلة .

(الثالث) أن يتحرى أوقات الإجابة وهى : الثلث الأخير من الليل ، وعند الأذان ، وبين الأذان والإقامة ، وعند بدء نزول الغيث ، وفى وقت الإفطار للصائم ، وفى السجود ، وفى نهاية التشهد الأخير ، أو فى أدبار الصلوات ، وعند صعود الإمام على المنبر يوم الجمعة ، وآخر ساعة منها بعد العصر ، وفى سفر الطاعة ، وفى الجهاد الصحيح ، كما أوضحناه سابقاً .

(الرابع) حضور القلب وجمعيته بكله على المطلوب لحديث : (لايقبل الله دعاءً من غافلٍ ساه) .

(الخامس) خشوع القلب وذله وانكساره بين يدى الله .

(السادس) الضراعة إلى الله برقة وتملق .

(السابع) الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فى أول الدعاء وأوسطه وآخره .

(الثامن) الثناء على الله بما هو أهله والاعتراف بالظلم والتقصير .

(التاسع) مداومة الدعاء فى السراء قبل نزول الضراء ، وهذا ابتعاد عن الغفلة والاستغناء عن الله .

(العاشر) تقدم عشر تسبيحات فأكثر لورود الأثر بذلك .

(الحادى عشر) الدعاء بالأدعية الشرعية المأثورة لانضباطها وسلامتها من الاعتداء .

(الثانى عشر) أن لايدعو الله بإثم ولا بقطيعة رحم، ولا يسلك كل دعاء أى مسلك من مسالك الاعتداء فإن الله يقول : (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين) . وفى الحديث : (إن أقواماً يعتدون فى الدعاء) .

(الثالث عشر) أن لايدعو بالمستحيلات أو خوارق العادات التى قد يكون ليس من أهلها ، وهذا أيضاً من الاعتداء .

(الرابع عشر) أن يدعو الله بما يليق ، فلا يدعوه طالباً رتبة الأنبياء أو الملائكة ، أو الاطلاع على شىء من علم الغيب ونحو ذلك مما يدخل فى قسم الاعتداء أو يسبب نكصه .

(الخامس عشر) أن لايدعو بدعاء الأنبياء غير المنصوص عليه ، كدعوة نوح على قومه أو دعوة إبراهيم عليه السلام لبعض ذريته ، لأن فى هذا مخالفة لسنة الله وإفراط لاينبغى صدوره من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فكثيراً ما نسمع بعض الجهلة يقول (رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي) اقتداء بإبراهيم بدون ملاحظة للفارق بينه وبين إبراهيم ، فإبراهيم يعلم من الله أن ذريته ستملأ الأرض براً وبحراً ، وفيهم المؤمن وأكثرهم فاسق ، كما قال تعالى : (ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب ، فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون) . فلهذا قال إبراهيم (ومن ذريتى) أدباً مع الله ودعاء له بما يليق . أما هذا السائل الجاهل فإنه رب أسرة قليلة لايرضى أن يكون بعض أولاده كافراً أو ملحداً لايصلى ، فكيف يدعو ربه بقوله : (اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي)[1] فهذه الآية مما نتعبد الله بتلاوتها لا بالدعاء بها ، والداعى بها ظالم لنفسه ومسيء إلى ذريته، إذ يسأل الله صلاح بعضهم دون بعض ، فينبغى التفطن لذلك وتنبيه الغافل عن هذا الدعاء الذى لايرضى مضمونه لذريته .

---

(١) سورة ابراهيم، آية (٤٠).

(السادس عشر) أن يكون ملازماً للتوبة والاستغفار ليكون أدعى للقبول .

(السابع عشر) الخروج من المظالم ، فقد روى عبد الله بن الإمام أحمد فى كتاب الزهد أن بنى إسرائيل أصابهم بلاء فخرجوا مخرجاً فأوحى الله إلى نبيهم أن أخبرهم أنكم تخرجون إلى الصعيد بأبدان نجسة وترفعون إلىّ أكفاً قد سفكتم بها الدماء وأكلتم المال الحرام ، الآن اشتد غضبى عليكم ولن تزدادوا منى إلا بعداً) .

(الثامن عشر) تحرى أكل الحلال لما ورد فى صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم أن الله طيب لايقبل إلا طيباً ، إلى أن ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب . يارب ، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك ؟

(التاسع عشر) أن يكون الدعاء بضراعة ، وحرقة قلب واجتهاد لا بأساليب سجعية إلا إذا جاءت من غير تكلف كقوله (اللهم اهدنى فيمن هديت وعافنى فيمن عافيت) ، ونحو ذلك .

(العشرون) أن يكون برهبة ورغبة وقوة رجاء وخشوع لقوله تعالى : (إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين). ويدخل فى هذه الآية .

(الحادى والعشرون) وهو التقدم بالحسنات وبذل الصدقات ليكون الداعى من المسارع فى الخيرات .

(الثانى والعشرون) تحرى الأماكن الفاضلة الشريفة كالمساجد عامة والمساجد الثلاثة خاصة ومشاهدة الكعبة أخص وأخص ، كما يتحري

الأوقات الفاضلة . وقد ورد الأثر أن المؤمن أقرب ما يكون إلى الله فى سجوده .

(الثالث والعشرون) أن لايستبطئ الإجابة فإن هذا من الآفات التى تمنع ترتب أثر الدعاء عليه وهو أن يستعجل العبد . ففى المسند عن أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل) . قالوا : يا رسول الله كيف يستعجل قال : (يقول : قد دعوت ربى فلم يستجب لى) وذلك لأنه يستمر فيدع الدعاء كالقانط والعياذ بالله . ومن أنفع الأدوية للنوازل الحسية أو المعنوية الإلحاح فى الدعاء . ففى مسند الحاكم عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم : (لاتجزعوا فى الدعاء فإنه لايهلك مع الدعاء أحد) وقد تقدم حديث : (إن الله يحب الملحين فى الدعاء) .

(الرابع والعشرون) من شروط الدعاء وآدابه هو الإيقان بالإجابة لأنها من قوة الثقة بالله وصدق الاتكال عليه ورجاء ماعنده . وقد جاء فى مستدرك الحاكم من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : (ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاهٍ) . فغفلة القلب عن الله تبطل قوة الدعاء ومفعوله ، وذكر بعضهم حسن التعبير فى لفظ الدعاء من آدابه قائلا إنه يتضمن مواجهة الحق سبحانه بالخطاب . واستدلوا بحديث لايثبت وهو لايقبل الله دعاء ملحوناً . والصحيح أن التعبير على حسب الاستطاعة وإن دعاء التضرع والخشوع الصادر عن رهبة من غضب الله ورغبة فى رحمته مع حرقة قلب واجتهاد أحسن تأثيراً من المنطلق الفصيح الخالى عن ذلك .

(الخامس والعشرون) التوسل إلى الله بصالح الأعمال المرضية له .

(السادس والعشرون) التوسل إلى الله بأسمائه وصفاته الكريمة العظيمة

خاصة ما اشتمل منها على الاسم الأعظم أو قاربه مما يحبه الله ، ومنها ما ورد فى السنن وصحيح ابن حبان من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقول : اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) . فقال : لقد سأل الله بالاسم الذى إذا سئل به أعطى وإذا دعى به أجاب) .

وفى السنن أيضاً من حديث أنس أنه كان مع النبى صلى الله عليه وسلم جالساً ورجل يصلى ثم دعا فقال : اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام ياحى يا قيوم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : (لقد دعا الله باسمه العظيم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى) وأخرج الحديثين الإمام أحمد فى مسنده أيضاً .

وفى مسند أحمد وصحيح الحاكم من حديث أبى هريرة وأنس بن مالك وربيعة بن عامر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ألظو بياذا الجلال والإكرام) . والإلظاظ : الإلحاح ، يعنى تعلقوا بها وألزموها وداوموا عليها .

وفى جامع الترمذى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أهمه أمر رفع رأسه إلى السماء ، وإذا اجتهد فى الدعاء قال: (ياحى ياقيوم) . وفيه أيضاً من طريق أنس قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا كربه أمر قال : (ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث) .

وفى الصحيحين من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان يقول عند الكرب : لاإله إلا الله العظيم الحليم ، لاإله إلا الله رب العرش العظيم ، لاإله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم) . وتقدم دعاء الكرب فى حديث ابن مسعود والكلام عليه . كما تقدم أيضاً حديث الكرب فى دعاء ذى النون .

وذكر ابن أبى الدنيا فى الدعاء عن الحسن قال : كان رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الأنصار يكنى أبا مغلق وكان تاجراً يتجر بمال له ولغيره يضرب به فى الآفاق وكان ناسكاً ورعاً فخرج مرة فلقيه لص، مقنع بالسلاح وقال له : ضع مامعك فإنى قاتلك . قال : فما تريد إلا دمى فشأنك والمال ، قال : أما المال فلى ولست أريد إلا دمك . قال : أما إذا أبيت فذرني أصلي أربع ركعات . قال : صلِّ ما بدا لك . فتوضأ ثم صلي أربع ركعات فكان من دعائه فى آخر سجدة أن قال : ياودود ، ياذا العرش المجيد ، يافعال لما تريد ، أسألك بعزك الذى لايرام ، وبملكك الذى لايضام ، وبنورك الذى ملأ أركان عرشك أن تكفينى شر هذا اللص ، يامغيث أغثنى ، يامغيث أغثنى ، يامغيث أغثنى (ثلاث مرات) . فإذا هو بفارس أقبل بيده حربة قد وضعها بين أذنى فرسه ، فلما بصر به اللص أقبل نحوه فطعنه فقتله ، ثم أقبل إليه . فقال : قم . فقال : من أنت بأبى أنت وأمى قد أغاثنى الله بك اليوم . فقال : أنا ملك من أهل السماء الرابعة ، دعوت فسمعت لأبواب السماء قعقعة ، ثم دعوت بدعائك الثانى فسمعت لأهل السماء ضجة ، ثم دعوت بدعائك الثالث فقيل دعاء مكروب ، فسألت الله أن يولينى قتله . قال الحسن : فمن توضأ وصلى أربع ركعات ودعا بهذا الدعاء استجيب له مكروباً كان أو غير مكروب) .

فهذه النصوص والآثار ترغبك أيها المؤمن بحسن علاقتك بالله ، وذلك بالصدق فى محبته والإخلاص فى معاملته بأن لا تحب مايكرهه الله أو يبغضه من أى شخص أو عمل ، فتقصر محبتك على مايحبه الله من أى شخص أو عمل، وتبغض وتعادى وتجانب كل مايبغضه الله من أى عمل أو أى شخص ولو كان أقرب قريب، وتكون مستجيباً لأمر الله ، غيوراً على دينه ، غضوباً لحرماته وتكون همتك وغاية أملك العمل لدين الله من حمل رسالته والدفع بها إلى الأمام ، وبذل النفس والنفيس فى سبيل ذلك ، ولا تصر على ذنب أو تسوف فى

التوبة ، فإنك لاتدرى فى أى لحظة تموت ، ولا تأخذك الأمانى أو تشرد بك الشهوات عن صراط الله الموصل إليه ، بل عاكسها لتكون قريباً من الله ، مستجاب الدعوات ، خصوصاً إذا طاب مأكلك بالوقوف عند حدود الله فى المعاملات .

إن الله وعد المؤمنين بالمثوبة وندبهم إلى دعائه ضامناً لهم الاستجابة . وقد ورد أن الله لا يرد يدى عبده خائبتين إلا لمانع من موانع الإجابة ، والقرآن صريح فى ترتيب الجزاء على الخير والشر ، فينبغى لصاحب الشر أن لايطمع فى الخير ، لأن من طمع فيما لم يسلك طريقه فهو أحمق ، وينبغى معرفة أسباب الخير والشر ليكون فى سلوكه على بصيرة ويستفيد ذلك من وحى الله الذى ذكر أسباب شقاء كل أمة وأسباب هلاكها ، ليحذر من ارتكاب المهلكات واستحباب العماية على الهداية بشرط أن لايغالط نفسه كأن عنده صك أمان ، فإن من أعظم أسباب الردى والهلاك مغالطة النفس أمام الحقائق .

وهنا عوائق خطيرة تحول دون الاستجابة وتحقيق الإنابة وتجعل صاحبها محروماً من الوصول إلى الله ، فمنها مواصلة الذنوب مع ظن أن مجرد الاستغفار يمحوها أو تكرار الأذكار بدون توبة صحيحة يتبعها أعمال صالحة، كأن يظن أن الورد الفلانى أو الذكر الفلانى يمحو الذنوب وإن كانت مثل زبد البحر ، فيتكل على ذلك مع الإصرار على الذنوب ، جاهلا أن المعصية الكبيرة لايمحوها إلا التوبة النصوح ، كما ذكرناها سابقاً ، وأن الإصرار على الصغائر يجعلها كبائر ، وأن الإصرار على الكبائر يؤول إلى الشرك .

ومنها الاعتماد على نسبه والصالحين من آبائه وأجداده ، وهذا من أخبث غرور الشيطان وأفسده ، فإن الله قطع طمع الإنسان فى سعى غيره ، كما برأه من وزر غيره حيث قال : (وأن ليس للإنسان إلا ماسعى — ولا تزر وازرة وزر أخرى) .

ومنها الاعتماد على شفاعة الصالحين والأولياء من حى أو مقبور ، وقد قطع الله جميع وسائل المشركين حتى الشفاعة ربطها بإذنه ، فقال : (ولاتنفع الشفاعة عنده إلا بإذنه — مامن شفيع إلا من بعد إذنه — ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون) .

فهل بعد هذا النفى الصريح المكرر طمع فى شفاعة لم يأذن بها الله ، والله يقول : (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) ؟

ومنها ماهو أحمق من ذلك وهو الاغترار بسكنى بلد مقدس أو جوار ولى مزعوم ، ومع حماقة أهل هذا المسلك فإن شياطين الإنس من الدجاجلة قد وضعوا حكايات وأحاديث مفتراة فى كرامات هذا وذاك مما جعلوا جوار (فلان) لايضر معه معصية ، بل وضعوا أحاديث مكذوبة فى القدس ومكة أن الساكن بهما تسقط عنه تكاليف الإسلام ، وأنه بجوار الله ، وأنه لا تضره المعاصى ، بل زادوا فى إفكهم فقالوا : إن سيئات أهل مكة خير من حسنات غيرهم ، وقالوا عن الطواف إنه يكفر كبائر الذنوب من الزنى والفواحش حتى سهلوا لإبليس طرق الإغواء والعياذ بالله . على أن جميع مفترياتهم تخالف المعقول والمنقول ، فإن مسالكهم بسبب التأثير السيىء لهذه الأكاذيب مسالك إلحاد وكفر .

لقد مالوا عن الحق وانحرفوا عن هداية المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وعطلوا أعظم شرائع الإسلام من الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ثم الإقدام على كبائر الإثم والفواحش اعتماداً على قداسة المكان أو جوار الكعبة كأنهم جيران الله ، والله يقول : (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) .

وقد وردت أحاديث كثيرة بمضاعفة السيئات كما تضاعف الحسنات ، ولهذا اختار ابن عباس سكن الطائف على مكة ، والعقل يجزم ويحكم بأن

انتهاك الحرمات فى الأماكن المقدسة أشد جرماً وأشد إثماً وأكبر ، وبأن من أساء جوار الله واقترف المعاصى فى حرمه يستحق زيادة اللعنة والعقوبة ، وأما شبهتهم بجوار الولى فمدحوضة أيضاً ، لأن ولى الله لايرضى من العاصى ولا يشجعه على معصية الله بالشفاعة ، فلو قدرنا تقديراً خاطئاً انه يشفع بدون إذن الله فإنه يشفع لصاحب الزلة العاثرة لا لصاحب المعاصى المسترسل فيها ،لأن الولى لا يرضى إلا بما يرضى الله عنه فلو رضى بالمعاصى لم يكن ولياً ، ولكن الولى لايرضى إلا بما يرضى الله ، ولو كانت مكة تعصم من أمر الله أو تعيذ المجرم لما جرى فيها على عبد الله بن الزبير ورفقته ماجرى ، وهم من الأخيار ، بل فيهم صحابة ، ولما جرى على حجاج بيت الله من أبى طاهر القرمطى الخبيث من السفك والإرهاب ماجرى ، ولما حصل على أهل المدينة فى وقعة الحرة ماينذى له الجبين .

فالمعاصى إذا أراد الله تعجيل عقوبتها لايدفعها جاه ولى مزعوم ولا قداسة بقعة ، ومع هذا فلا زالوا إذا خوفناهم بشؤم المعاصى تعللوا بأنهم فى الحرمين ناسين أو متناسين ما أجراه الله من فظيع العقوبات فى الحرمين . والعجب أنهم إذا نسوا البعيد فكيف ينسون العقوبات القريبة مما يسمونه (سفر برى) وغيره ، ولكن هذا من التأثير السيء للكذب على الله ورسوله .

وهذه (بغداد) التى يزعم الدجالون أن فيها قبر الإمام أحمد ومعروف الكرخى لا يضر أهلها شيء ماداما بين ظهرانيهم ، فهل عصماها من شر التتار ومذابحهم الفظيعة فى القرن السادس تقريباً ؟ أو عصماها من جحم الشيوعية ومذابحها فى هذا القرن الرابع العشر ؟

ينبغى للمسلم أن لايأمن مكر الله فى حالة الإجرام أبداً ، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، وأن لاييأس من رحمة الله حال الإحسان ، فإن رحمة الله قريب من المحسنين .

ومن المعوقات عن الاستجابة لله غرور الشيطان وتلبيسه بالتعلق بغفران الله ورجائه ، وأنه يغفر الذنوب جميعاً دون الإتيان بأسباب المغفرة ، فإن الله يقول : (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) . والقرآن يفسر بعضه بعضاً . ومن الخطأ العظيم أخذ آية على ظاهرها أو عمومها وترك مايخصها أو ينص على المقصود منها ، فإن هذا من أحابيل الشيطان، وما أكثر من يقعون له فريسة بسبب تغفيله لهم عن الآيات المفسرة والمبينة للآية المجملة ، بل يجعلهم يتعلقون بقوله تعالى : (إن الله يغفر الذنوب جميعاً) ويتركون ما بعدها من الآيات التى تأمرهم بالإنابة إلى الله وإسلام الوجه له لا للشهوات والأغراض ، وتأمرهم باتباع الأحسن مما أنزل إليهم ، وكلها فيها الختام بالتحذير والوعيد الشديد ، فكيف ساغ لهم ذلك وكيف سمحوا لأنفسهم بهذا الموقف المشابه لموقف بنى إسرائيل الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ؟

ومن المعوقات الإبليسية عن تحقيق الاستجابة لله أن الشياطين يملون على أوليائهم تفسيراً معكوساً لقوله تعالى فى حق نبيه عليه الصلاة والسلام : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) إن محمداً صلى الله عليه وسلم لايرضى بإدخال أمته النار ، والله يعطيه مايرضيه فيدخلهم الجنة . وهذا خلاف العدل الذى قامت به السموات والأرض والذى مدح الله به نفسه بأنه (قائماً بالقسط) . فهل من القسط التسوية بين المسلمين والمجرمين ؟ وبين المحسنين والمذنبين ؟ والمصلحين والمفسدين ؟ وهل يرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم من العصاة لله بأكلهم الربا وإفسادهم الأعراض ، ومشابهتهم لإبليس فى ترك الصلاة وغيرها ؟

إن مرضاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتبطة برضوان الله ، فلا يرضى إلا بمرضاة ربه ، وإذا كان الله قد حكم بعقوبات العصاة فى النار حتى

يطهروا ، وبعقوبات المشركين على اختلافهم بالتخليد فى النار ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرضى ولا يسعه إلا الرضى بذلك ، وكيف لا يرضى وهو الوسيط بل يزداد رضاءً بإدخال الفاسق النار جزاءً على مخالفتـه ولا يشفع فيه إلا من بعد العقوبة التى تطهره حسب علم الله وإذنه له بالشفاعة . فتفسير أعوان إبليس لهذه الآية مجرد افتراء على الله وصد للمسلمين عن الاستجابة لله .

فالاستجابة لله من ضروريات الدين ومن أقوى الأسباب لاستجابة الدعاء ، وينبغى العلم بأن الدعاء من أهم مقامات العبودية ، فلا يجوز التوجه به لغير الله من غائب أو ميت أبداً ، فإن هذا شرك على ماقرره علماء السلف . وقد ورد الحديث : (الدعاء مخ العبادة) . ولا فرق بين ما يسمونه بالنداء والدعاء ليستبيحوا به دعاء الأموات ، فإنه يتضمن الدعاء ، ولاقيمة للنداء بلا طلب ، فهم يطلبون من الموتى مالا يقدرون عليه ، بل يطلبون أحياناً مالا يقدر عليه إلا الله ، كجلب الرزق والشفاء ، والإغاثة والنصر ونحو ذلك ، ويزعمون لتبرئة ساحتهم من الإشراك أنهم وسائط بينهم وبين الله وشفعاء ، وهذا كقول المشركين أعداء الرسل : (مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) .

والدعاء من خصائص الألوهية ، وقد بلغ بهم الاحتجاج على صحة شركهم إلى حد الحماقة والسفاهة حيث احتجوا لذلك بحديث (إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فلينادى : ياعباد الله احبسوا ، ياعباد الله احبسوا ، فإن لله حابس سيحبسه) . وهذا فى الحقيقة دعاء لأحياء من عباد الله الذين لانبصرهم وهم يبصرون كالملائكة والجن وغيرهم من الأحياء القادرين السامعين ، فليس فيه لهم أدنى حجة ولكنهم يتشبثون بالشبهات ، وليس هذا موضع الرد عليهم بالتفاصيل ، فقد تكفلت به كتب المناظرات من ردود الشيخ ابن تيمية ومن قبله ومن بعده إلى يومنا هذا ، وإنما أردت الإشارة بالقليل .

والأدلة على أن الدعاء من أعظم مقامات العبودية وأهمها شيء كثير ، منها قوله سبحانه وتعالى : (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين)[1]. وقوله تعالى : (قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم)[2]. وقوله : (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية) وقوله : (فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم) .

وعن النعمان بن بشير أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (الدعاء هو العبادة) . فقول : (الدعاء هو العبادة) معناه أنه معظم العبادة وأفضل العبادة كقوله صلى الله عليه وسلم : (الحج عرفة) يعنى الوقوف بعرفة هو الركن الأعظم . فمن أبطل الدعاء أو استهان به فقد أنكر القرآنأو استهان بالقرآن.

والحكمة الإلهية تقتضى أن يكون العبد معلقاً بين الرجاء والخوف اللذين بهما تتم العبودية ، وأن يحصل فى الدعاء إظهار كمال العبودية بالذلة والانكسار والتضرع والرجوع إلى الله بالكلية مفوضاً مستسلماً .

ومن تأمل هذه الآية : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب) وجد أن الله لم يقل لمحمد عليه الصلاة والسلام فقل إنى قريب – بل قال: (فإنى قريب . .) ليدل على تعظيم حال الدعاء من وجوه :

(أحدهما) كأنه سبحانه يقول : عبدى أنت لاتحتاج إلى الواسطة إلا فى طريق تحصيل الهداية فإنها من طريق رسلى وأما فى مقام الدعاء فلا واسطة بينى وبينك . وفى هذا أعظم رد على المشركين ومن قلدهم من القبوريين .

(ثانيها) أن قوله : (وإذا سألك عبادى عنى) يدل على أن العبد له . وقوله : (فإنى قريب . .) يدل على أن الرب للعبد .

---

(١) سورة غافر، آية (٦٠).

(٢) سورة الفرقان، آية (٧٧).

(ثالثها) أنه تعالى لم يقل : (فالعبد منى قريب) بل قال : (أنا منه قريب) : وفيه سر نفيس وهو أن العبد مخلوق ممكن الوجود ومحتوم عليه بالفناء فلا يمكنه القرب من الرب . أما الرب سبحانه فهو القادر من أن يقرب من العبد بفضله ورحمته كما هو قريب منه بعلمه ، بل هو أقرب إلى الإنسان من حبل وريده ، فالقرب من الله لا من العبد ، فيحصل من الله سبحانه للعبد قرب الفضل والرحمة إذا دعاه بعد تحقيق الإيمان والاستجابة ، فإن رحمة الله قريبة من المحسنين ، فلهذا قال تعالى : (فإني قريب) .

(رابعها) أن الداعى مادام خاطره منشغلا بغير الله من المحبوبات والمعشوقات فإنه لايكون فى دعائه على الحالة التى يرضاها الله ويطلبها من العبد ، فلا يحظى بالقرب حتى يستفرغ قلبه مما سوى الله ويكون الله غاية قصده فى كل شىء حتى لاتحجبه الأغراض النفسية عن الله ، فهذه الآية الكريمة : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع) هى من ركائز التوحيد ودعائمه ، إذ فيها توجيه للسائل إلى تحقيق الإيمان بالاستجابة لله، وإذا حصل هذا اكتسب العبد بدعائه سكينة فى نفسه وانشراحاً فى صدره وصبراً يسهل عليه مايلاقيه إذا لم يحظ بسرعة الإجابة. فكيف إذا حظى بها ؟

وفسر ابن الأنبارى قوله تعالى : (أجيب دعوة الداع) بمعنى أسمع لأن بين السماع والإجابة نوعاً من الملازمة ، فلهذا يقام كل واحد منهما مقام الآخر ، فقولنا سمع الله لمن حمده أى أجاب الله . فقوله (أجيب دعوة الداع) أى أسمع تلك الدعوة . وبهذا يزول الإشكال فى التساؤل عن سرعة الإجابة والمقصود من السماع هو القبول كما فى معنى قوله (سمع الله لمن حمده) وذلك لأن المراد من الدعاء الإقبال على الله ، والتوبة من الذنوب ، وحصوله الضراعة المحبوبة إلى الله ، وحصول التذلل والخشوع ، فلهذا كان عبادة ، وكان تاركه مغضوباً عليه ، وكانت إجابته محققة لاتتخلف إلا لسبب .

فعن أبى سعيد الخدرى قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(دعوة المسلم لا ترد إلا لإحدى ثلاث : مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم ، إما أن يعجل له فى الدنيا ، وإما أن يدخر له فى الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء بقدر ما دعا) . وهذا الحديث فيه تمام البيان عن حسن نتيجة الدعاء ، ثم إن هذه الآية تنص على الكرم العظيم من الله سبحانه لعباده لأنه يجيب دعاءهم . مع غنائه عنهم، ففيها حض لهم واستنهاض لهممهم على طاعة الله والاستجابة العامة له حيث أنهم محتاجون إليه من جميع الوجوه . فكيف يستجيب لهم مع غنائه عنهم وهم لا يستجيبون له مع شدة فقرهم وحاجتهم إليه .

أما تقديم الاستجابة على الإيمان فى قوله تعالى : (فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى) فلأن الاستجابة عبارة عن الاستسلام والانقياد لله . أما الإيمان فهو من صفات القلوب وأعمالها من تحقيق حب الله ورسوله وتعظيمهما ، والعبد لايصل إلى نور الإيمان حتى يستعذب طاعة الله وعبادته ويأنس بها ، والأعمال وحدها لاتجدى بدون إيمان يجعل صاحبه يحب الله ورسوله فوق كل شىء بل يجعلها أحب من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين .

وبهذا يكون مسارعاً فى مرضاة الله قاصراً محبته على مايحبه الله ويرضاه فيكون محباً فى الله موالياً فى الله دون ما سواه من الأغراض النفسية والمطالب المادية ، ولا يبغض إلا مايبغضه الله من الأعمال أو الأشخاص دون الالتفات إلى العواطف والأغراض ، فيبتعد عن كل مايبغضه الله ويعاديه لله وفى الله ولو كان أقرب قريب وتكون قرة عينه فى رعاية أمانة الله من حمل رسالته والدفع بها إلى الأمام ، فهذا هو الإيمان الذى لوحظى به المسلمون لتغير واقعهم تغيراً محسوساً . وبالله التوفيق .

وروى مسلم عن أبى هريرة قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول : (اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى

كل خير ، والموت راحة لى من كل شر) .

وعن عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (اللهم إنى أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى) رواه مسلم .

وعن عطاء بن السائب أن عماراً كان يدعو بدعوات سمعها من النبي صلى الله عليه وسلم : (اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحينى ماعلمت الحياة خيراً لى ، وتوفنى ماعلمت الوفاة خيراً لى . اللهم وأسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق فى الرضى والغضب ، وأسألك القصد فى الفقر والغنى ، وأسألك نعيماً لاينفد ، وقرة عين لاتنقطع ، وأسألك الرضى بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق للقائك فى غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين) رواه النسائى .

وروى الترمذى وأبو داود وابن ماجة عن ابن عباس قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول : (اللهم أعني ولا تعن علي ، وانصرني ولا تنصر على ، وامكر لى ولاتمكر على ، واهدنى ويسر الهدى لى ، وانصرنى على من بغى على.اللهم اجعلنى لك شاكراً ، لك ذاكراً،لك راهباً، لك مطواعاً ،لك مخبتاً ، إليك أواهاً منيباً ، رب تقبل توبتى ، واغسل حوبتى ، وأجب دعوتى ، وثبت حجتى ، وسدد لسانى ، واسألك سنجمة صدرى) .

وعن أنس قال : كان أكثر دعاء النبى صلى الله عليه وسلم : (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) متفق عليه ، وذلك لأنها جامعة لخصال الخير كلها .

واعلم أنه لايجوز الاقتصار على الدعاء وترك الأسباب التى رتب عليها المسببات فى الكون ، فإن هذا معصية ، كما لايجوز الاعتماد عليها وترك الدعاء

استغناء بها عن فضل الله ولكن يجمع بين هذا وهذا ، فيأخذ لكل شيء سببه ، ويسأل الله التوفيق ، فإن حصل له مايريده من فعل الأسباب لطلب الرزق أو الصحة أو النصرة فقد أعطاه الله من خزائنه الكونية التي يفيض منها على جميع متبعي سنته الكونية في الخلق ، وإن بذل جهده ولم يظفر بمطلوبه أو كان عاجزاً عن تحصيل السبب الذي يعالج به النوائب ، كالتاجر الذي ذكرنا قصته حين دهمه اللص الفاتك ، فإنه يلجأ إلى الله مسبب الأسباب ، ويطلب المعونة والتوفيق ممن بيده ملكوت السموات والأرض ، وكل دابة هو آخذ بناصيتها ، وهو سبحانه يجيب دعوة الداعي إذا خصه بالدعاء والتجأ إليه ضارعاً مستيقناً أنه لاملجأ ولا منجا منه إلا إليه . وكم لله من عناية بالمتوجهين إليه مخلصين له رغبا ورهباً ، قال تعالى : (أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله قليلا ما تذكرون ؟)[1].

وليست مشروعية الدعاء بالنطق فقط ، ولكنه بنطق اللسان وفزع القلب إلى الله وشعوره بعظيم الحاجة إلى معونته والالتجاء إليه . ولهذا كان تحقيق الإيمان بالله والاستجابة لجميع أوامره وتشريعاته من ضروريات إجابة الدعاء .

ومن لوازم الإيمان ومكملاته ، الإكثار من ذكر الله والاستغفار وتلاوة القرآن بتدبر وخشوع . فقد روى الإمام مسلم عن أبي هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في طريق مكة فمر على جبل يقال له جمدان، فقال : (سيروا ، هذا جمدان، سبق المفردون ، قالوا : وما المفردون يارسول الله ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً والذاكرات) .

وروى الترمذي والدارمي والبيهقي في شعب الإيمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يقول الرب تبارك وتعالى : من شغله القرآن عن

---

(١) سورة النمل، آية (٦٢).

(نكتة لطيفة) تقدم سائل إلى بعض المشائخ الفضلاء قائلا : (إذا كان الرزق مقدراً بقضاء الله فلأى شيء ندعو ؟ فقال الشيخ : وإذا كانت إجابتى لك أو عدمها مقدرة بقضاء الله فلأى شيء تسأل ؟) .

وقوله سبحانه وتعالى : (لعلهم يرشدون) يعنى يرشدون بالجمع بين الإيمان والإذعان لأوامر الله ونواهيه ، لأنها جامعة لكل أسباب الخير والنجاح والفلاح فى الدنيا والآخرة ، فمن حققها حصل على الرشد ، ومن لم يحققها كان محروماً من الرشد بقدر ما أضاعه منها . والرشد هنا ضد الغي والفساد ، كما قال تعالى فى شأن الفراعنة الكافرين ومن قلدهم من بعدهم أبد الآبدين : (وإن يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا) . وكما قال عن خليله إبراهيم : (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين)[1] .

فالرشد فى هذه الآيات يقصد به صلاح جميع الأحوال السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية وغيرها من جميع شؤون الحياة ، بخلاف الرشد الذى هو ضد السفاهة الموجبة للحجر على أموال السفهاء حتى يرشدوا ، فإنه رشد مقصور على الأحوال الاقتصادية من إصلاح المال وحفظه عما لا فائدة فيه ، قال تعالى لنبيه (فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم) . فالرشد والرشاد المقصود فى هذه الآية وفى آية مؤمن آل فرعون : (ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد)[2] هو ضد الغي والفساد .

وبذلك يعلم أن الأعمال إذا لم تكن صادرة غن روح الإيمان لايرجى الرشاد لصاحبها ولا الهداية الصحيحة ، كمن يصوم اتباعاً للعادة وموافقة للبيئة أو المعاشرين ، فإن الصيام لايهيئه للتقوى ولا يعده للرشاد ، وربما زاده

---

(١) سورة الأنبياء، آية (٥١).

(٢) سورة غافر، آية (٣٨).

فساداً فى الأخلاق وضراوة فى الشهوات ، وكذلك المصلى ببدنه لا بقلبه ، فإن صلاته لاتنهاه عن الفحشاء والمنكر من الطمع فى الأموال والأعراض وأكل الربا والغش والغبن وإنفاق السلع بالأيمان الكاذبة وغير ذلك . ولهذا نجد الله سبحانه يذكرنا أثناء سرد الأحكام بأن الإيمان هو المقصود الأول فى إصلاح النفوس ، وأن الأعمال لاتحصل نتائجها الطيبة إلا إذا كانت مشربة بالإيمان والتقوى .

فحصول الرشد مربوط بعمارة الضمائر بتقوى الله واستشعار مشاهد يوم القيامة كما أسلفنا ، وبها تزكو النفوس وتشرف أخلاق أصحابها ، فإن الذى يوجه سلوك الأفراد والجماعات من صلاح أو فساد هو طهارة قلوبهم من رجس الشيطان وفتنة الاتجاه المادى أو عكسه ، وبطهارة القلب من ذلك تتحقق فى الإنسان معانى الإنسانية الكاملة التى لاتتحقق إلا بمكارم الأخلاق .

فجميع روافد الإيمان من تشريعات الإسلام كلها لبناء الإنسانية بالأخلاق الفاضلة التى تعدها للقيام بخلافة الله فى الأرض خير قيام ، ولقوة المصطفى صلى الله عليه وسلم فى تطبيق ذلك أثنى عليه الله بقوله : (وإنك لعلى خلق عظيم) .

ففى التشريعات الإسلامية أساس متين لإرساء قواعد الحق والعدل وحفاظ قوى للحقوق والواجبات ، وسياج منيع لروابط المحبة والإخاء ، ومرجع استقامة للسلوك وصلاح الأمر كله .

والأمة إذا سادت فيها الأخلاق بقوة العقيدة ارتفع شأنها وعز سلطانها وكانت فى تماسكها كالبنيان المرصوص ، وبذلك يعلو شأنها ويرهب كيانها وتشق طريقها إلى الفتح والتقدم ، لأن قوة العقيدة والأخلاق يحميانها فى الداخل ، ويجعلانها تستسهل الصعاب فى الخارج ، والعكس بالعكس .

كيفية الصوم وحدوده

قال تعالى : (أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وكُلُوا وَٱشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا ٱلصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِى الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ [(١)] .

قال الأزهرى : الرفث كلمة جامعة لكل مايريد الرجل من امرأته . وحقق الراغب أن الرفث كلام متضمن لما يستقبح من ذكر الوقاع ودواعيه ، وجعل كناية فى هذه الآية على جوازه . والرفث فى غير هذه الآية هو الفحش فى الكلام كما سيأتى ، ويقصد به فى هذه الآية الإفضاء إلى النساء بحاجات الرجال منهن ، وهذا التعبير من عظيم أدب القرآن .

وقد وردت أخبار فى سبب نزول هذه الآية قد توهم بعض الناس فيها التعارض ، وليست بحمد الله متعارضة، لأنه اجتهاد من الصحابة ناشئ عن الإجمال المفروض فى الصيام ، فأتى الله ببيان فى هذه الآية ، وذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم فهموا من قوله تعالى : (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم) أن التشبيه يتناول كيفية الصوم ، فحصل لبعضهم أن نام قبل أن يفطر ثم استيقظ فواصل صيامه إلى اليوم الثانى ، وكان عاملا ، فأضره الصيام حتى غشى عليه ، وبعضهم وقع على أهله فى الليل وتحرج مما فعل ، فارتفعت الشكاوى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) سورة البقرة، آية (١٨٧).

فأنزل الله هذه الآية التى ظن بعض المفسرين أنها ناسخة لقوله تعالى : (كما كتب على الذين من قبلكم) وبعضهم قال : ليست ناسخة ، وهو الصواب ، لأنها مبينة للإجمال الذى فيها ، وأن التشبيه ليس عاماً من كل الوجوه كما فهموه باجتهادهم وحصل عليهم الحرج ، وإنما هو تشبيه منه تعالى فى الفرضية لا فى الكيفية ، فكانت هذه الآية الكريمة مبينة لما امتاز به صومنا من الرخصة والتسهيل الذى لم يحظ به من قبلنا ، وأن كيفية صومنا مغايرة لصوم من قبلنا . ففى هذه الآية تسهيل على المجتهدين من الصحابة بكيفية الصيام ممن سلكوا الأحوط فى الشدة يرونه أقرب للتقوى ، فجاءهم من الله اليسر الموعودين به .

وقد ذكر بعض المفسرين حديث قيس بن صرمة بكسر الصاد وماجرى من عمر بن الخطاب وكعب بن مالك فى الحديث الآخر فى أسباب النزول ، وما أدى إليه اجتهادهم وخشيتهم لله حتى حصل لهم التيسير ، فقوله تعالى: (أحل لكم) لايقتضى أنه كان محرماً من قبل وإنما هو لدفع التوهم الذى أدى إليه مفهوم المجتهدين حيث لم يرد تنصيص على تحريمه قبل نزول هذه الآية وإقرار النبى صلى الله عليه وسلم لهم هو جرىٌ على عادته فى إقرار الاجتهاد بتفسير المجمل قبل أن يأتى بيانه ، ويجوز أن يكون محرماً بسنة لم يصل إلينا خبرها الظاهر من السياق .

وقوله سبحانه وتعالى : (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) فيه تعليل واضح لرخصة المباشرة والقربان ، فهو قول مستأنف ساقة الله لبيان سبب الحكم من كونهن لباس لكم وأنتم لباس لهن فسمى امتزاج كل واحد من الزوجين بصاحبه لباساً لانضمام الجسد وامتزاجهما وتلازمهما تشبيهاً بالثوب كما قال الشاعر :

إذا ما الضجيع ثنى جيدها   تداعت فكانت عليه لباسا

وقال أيضاً :

لبست أناســـــاً فأفنيتهم وأفنيت بعد أناس أناسا

فكأنه سبحانه وتعالى يقول : إذا كانت بينكم وبينهن مثل هذه المخالطة والملابسة قل صبركم عنهن وصعب عليكم اجتنابهن ، فلذلك رخصت لكم فى مباشرتهن . وقال بعضهم : يقال لما ستر الشئ وواراه لباس ، فجائز أن يكون كل واحد منهما ستراً لصاحبه عما لايحل ، كما ورد الخبر : (من تزوج فقد أحرز ثلثى دينه) .

وقال ابن زيد : هن لباس لـكم وأنتم لباس لهن : يريد أن كل واحد منهما يستر صاحبه عند الوقاع عن أبصار الناس . وقيل وجه التشبيه أنه لما كان الرجل والمرأة يعتنقان فيضم كل واحد جسمه إلى جسم الآخر حتى يصير كل واحد منهما لصاحبه كالثوب الذى يلبسه ، سمى كل واحد منهما لباساً .

وقال الربيع : هن فراش لكم وأنتم لحاف لهن . وقيل : بل جعلها لباساً للرجل من حيث أنه يخصها بنفسه كما يخص لباسه بنفسه ويراها أهلا لأن يلاقى كل بدنه كل بدنها كما يعمله فى اللباس وهى كذلك . وقيل : يحتمل أن يكون المراد ستره بها عن جميع المفاسد التى تقع فى البيت لو لم تكن المرأة حاضرة كما يستتر الإنسان بلباسه عما يضره أو ينظر إليه .

وقد نقلت أقرب الأقوال للصواب مما قيل فى هذا التشبيه ، وأقربها أن الملابسة المخالطة ، فكل من الزوجين خالط الآخر وعرف دخائله فهو ملابس له ، كما أن كلا منهما ستر لصاحبه فى الإحصان عن الوقوع فى الفاحشة .

وقال الواحدى : إنما وحد اللباس بعد قوله (هن) لأنه يجرى مجرى المصدر (وفعال) من مصادر فاعل وتأويله (هن ملابسات لـكم) .

وقوله سبحانه وتعالى : (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) يعنى تظلمونها وتنقصونها حظها من الخير . فالاختيان من الخيانة ، كالاكتساب من الكسب ، فيه شدة وزيادة ، ولم يقل (كنتم تختانون الله — كما قال — لاتخونوا الله) بل قال (كنتم تختانون أنفسكم) لقدم حصول القطع بالتحريم، فكان فعلهم عبارة عن عدم الوفاء بما هو خير للنفس ، ولو حصل القطع بالتحريم فالخائن لله خائن لنفسه حيث يعرضها لعقوبات الله وسخطه . وقيل : المعنى أن الله يعلم أنه لو كان ذلك التكليف الشاق لوقعتم فى الخيانة .

(أقول) : وهذا حصوله بعيد من المؤمنين إلا فى النادر ، والمعنى مستقيم فى التعبير بالخيانة ، سواء كان التحريم حاصلا أو تصوروه عن اجتهاد منهم كما مضى ، فضيقوا علىأنفسهم فهمعاصون، سواء كانبحسب اعتقادهم الاجتهادى أو بحسب الواقع . إنهم محتاجون إلى التوبة والتسهيل .

فلذا قال سبحانه وتعالى : (فتاب عليكم وعفا عنكم) ، فإن كان ذنبهم بتحريم المباح عليهم فى ليالى الصوم أو التورع منه لاعتقادهم مشابهة صيامهم لمن قبلهم فى الكيفية فتفسر التوبة بالرخصة ويفسر العفو بالتسهيل والتخفيف، كما فى قوله (عفوت لكم عن صدقة الخيل والرقيق) وقوله (آخر الوقت عفو الله) . وإن كان ذنبهم اقتراف مافهموا تحريمه ولابسوه فالتوبة على ظاهرها يعنى أن الله قبل توبتكم لعلمه إخلاصكم ومراقبتكم له وعفا عن خيانتكم لأنفسكم ، لأن العفو يحتمل العفو من الذنب ويحتمل الرخصة والتسهيل ، والتوبة تحتمل معنيين : أحدهما قبول التوبة من المذنب التائب المنيب . وثانيهما : التخفيف بالرخصة كقوله تعالى : (علم أن لن تحصوه فتاب عليكم) يعنى خفف عنكم . وقوله : (لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار) وهم لم يحصل منهم مايوجبها .

وقوله سبحانه وتعالى : (فالآن باشروهن) المباشرة هى التصاق البشرة

بالبشرة أو ملامسة الشيء للشيء ، وهى هنا كناية عن العمل الجنسى بين الزوجين ، فهى كالملامسة حقيقة وكناية . وهذا التعبير من أدب القرآن ونزاهته . والمعنى : فالآن باشروهن بعد ما جرى منكم من الاختيان لأنفسكم نتيجة تصوركم تحريمه . وهذا الأمر الصريح للإباحة النافية لما توهموه أو الناسخة للمنع على إحدى القولين ، وهو من يسر الدين وسماحته رفقاً بالمكلفين .

وقوله سبحانه : (وابتغوا ماكتب الله لكم) يعنى ليكن هدفكم من المباشرة هو المقاصد الشرعية التى شرعت لأجلها من إعفاف كل واحد لصاحبه وإحصانه ، وقصد تكثير نسل أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لا لمحض الشهوة الجنسية التى يشارككم فيها البهائم ، فإن التمتع باللذة إذا كان مصحوباً بتلك المقاصد حصل فيه الثواب على حسب صدق تلك النيات وقوتها ، وإذا خلا من ذلك كان تمتعاً بهيمياً .

ولذا قال صلى الله عليه وسلم فى حديث الفقراء : (وفى بضع أحدكم صدقة) قالوا : يارسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر ؟ قالوا : نعم . قال : فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر) رواه الإمام مسلم .

وهذا من جملة النصوص الموضحة موقف المسلم فى جميع أحواله أن يكون عقائدياً حتى لايلتقى فيها مع الكفار الذين تتساوى أهدافهم مع البهيمية فى أغلب الأحوال ، بل تكون جميع حركاته وسكناته مرتبطة بالله خادمة لدينه ليكون محفوفاً بألطاف الله ، حائزاً على رضوانه ومثوبته ، فالقرآن يوقظ شعور المؤمن نحو عقيدته والتزام مرضاة ربه فى كل شىء حتى فى اللذة الجنسية .

وتتضمن عبارة الآية النهى عن المباشرة المحرمة التى لايقصد بها التناسل أوليست محلا للتناسل مما لم يكتبه الله كالزنى واللواط ولوفى الزوجة كما سيأتى

بحثه عند قوله تعالى ، (فأتوا حرثكم) فإن المقصود الشرعي من التزاوج حصول الذرية وإعفاف نفسه ونفس زوجته عن الزنى بالاستغناء فى الحلال .

ومما كتب الله علينا ابتغاءه فى هذه الآية الاجتهاد فى العبادة التماساً لليلة القدر الشريفة التى من حرمها فقد حرم الخير ، وأن لاننشغل عنها بتلك اللذة ، فإن ماكتبه الله لنا من التعفف بحلائل النساء وطلب الذرية يجب أن يكونا موصولين بالله لا مجرد شعور حيوانى مقصور على الجسد ومنفصل عن المقصود الأسمى والأفق الأعلى الذى يتجه المسلم المؤمن إليه .

وقرأ الحسن البصرى والحسن بن قرة (واتبعوا ماكتب الله لكم) من الاتباع ، وجوزه ابن عباس مع ترجيحه القراءة المشهورة (وابتغوا) يعنى اطلبوا الرخصة والتوسعة فيما كتب الله إباحته مع اعتبار المقاصد الحسنة فيه كما قدمنا .

وقوله سبحانه وتعالى : (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) فيه تحديد واضح قاطع لمدة الإفطار والتمتع بالمباح طيلة ماينطبق عليه مسمى الليل حيث ضبط الله بحروف الغاية وهى (حتى وإلى) فحتى غاية للتبيين ، ولا يصح أن يقع التبيين لأحد ويحرم عليه الأكل إلا وقد مضى لطلوع الفجر قدر يعرف به ، ولذا جاءت الآثار التى مضى على العمل بها أهل الأمصار تحديد الفجر بالبياض المعترض بجنة ويسرة ، وهو الفجر الصادق ، بخلاف البياض الأفقى المستطيل ، ففى حديث ابن مسعود إن الفجر ليس الذى يقول هكذا ــ وجمع أصابعه ثم نكسها إلى الأرض ــ ولكن الذى يقول هكذا ــ ووضع المسبحة على المسبحة ومد يديه . وورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : هما فجران . فأما الذى كأنه ذنب السرحان فإنه لا يحل شيئاً ولا يحرمه ، وأما المستطيل الذى عارض الأفق ففيه يحل الصلاة ويحرم الصيام . ورواه الدارقطنى مرسلا . والخيط فى اللغة عبارة عن

اللون . والفجر هو أول بياض النهار المستطيل المنتشر في الأفق من تباشير ضياء الشمس ، وأصله الشيء المنفجر .

وأخرج البخارى عن عدى بن حاتم قال قلت : يارسول الله ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، أهما الخيطان ؟ قال : إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين . ثم قال : لا ، بل هو سواد الليل وبياض النهار) وذلك لأن مايبدو من البياض يرى ممتداً كالخيط ، كما قال الشاعر :

الخيط الأبيض ضوء الصبح منفلق   والخيط الأسود جنح الليل مكتوم

وقوله صلى الله عليه وسلم لعدى : (إنك لعريض القفا) لفظة يكنى بها عن عدم الفطنة . وقد أورد البخارى حديث عائشة أن بلالا كان يؤذن بليل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : كلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم فإنه لايؤذن حتى يطلع الفجر) . قال البخارى : قال القاسم — ولم يكن بين أذانيهما إلا أن يرقى ذا وينزل ذا .

وذكر الحافظ فى شرحه الروايات فى معناه عند الإمام مسلم ، وفى السنن الناطقة بأن أول النهار الذى يجب به الصيام الفجر الصادق . ثم قال : وذهب جماعة من الصحابة ، وقال به الأعمش من التابعين ، وصاحبه أبو بكر بن عياش إلى جواز السحور إلى أن يطلع الفجر ، فروى سعيد بن منصور عن أبى الأحوص عن عاصم عن زر عن حذيفة . قال : تسحرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هو والله النهار غير أن الشمس لم تطلع وأخرجه الطحاوى من وجه آخر عن عاصم نحوه .

وروى ابن أبى شيبة وعبد الرازق ذلك عن حذيفة من طرق صحيحة . وروى ابن المنذر هذا وغيره حتى روى عن أبى بكر أنه قال : لولا الشهرة لصليت الغداة ثم تسحرت قال إسحاق : هؤلاء رأوا جواز الأكل والصلاة بعد طلوع الفجر المعترض حتى يتبين بياض النهار . انتهى باختصار .

وهذا مبنى على ما ذكرته سابقاً من حد الغاية بحرف (حتى) أنه لايصح أن يقع التبيين لأحد ويحرم عليه الأكل إلا وقد مضى لطلوع الفجر قدر يعرف به ، وينبغى أن يعلم أن انتشار ضوء الفجر لايعرف فى الليالى المقمرة ولا بالشوارع المستنيرة بأنوار الكهرباء وإنما يظهر انتشاره فى الليالى المظلمة والأماكن الخالية من الأنوار ، وحسبنا أن نعرف فسحة الله للصائمين فنخالف أهل التشدد والتنطع ، وأن لانعتبر مايزاد فى الحساب من الدقائق للاحتياط مما هو من مبالغة الخلف فى تحديد الظواهر مع التفريط فى إصلاح الباطن بالتقوى عكس ماعليه السلف الصالح ، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه : إن بلالا يؤذن بليل ، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم ، قال بعض رواته كان رجلا أعمى لايؤذن حتى يقال له أصبحت أصبحت رواه الشيخان وغيرهما .

وبما أن فى الآية نص قاطع على تحديد وقت الأكل بغاية طلوع الفجر ثم إتمام الصيام إلى الليل ، فعلى هذا من أكل أو شرب يظن عدم طلوع الفجر فصومه صحيح مهما بلغ به الشك ، وذلك لاستصحاب حكم الليل وعدم تيقن طلوع الفجر الذى هو نهايته وغايته ، وعلى العكس من أفطر قبل غروب الشمس يظنها قد غربت فإنه يبطل صومه لأنه مطالب بإتمام الصيام إلى الليل الذى لايبتدئ إلا بغروب الشمس فاستصحاب حكم النهار بالصوم واجب عليه حتى يتيقن دخول الليل الذى هو نهاية الصوم وغايته .

وفى الآية دليل على استحباب السحور وتأخيره كما أيدت السنة ذلك ، كما أن فى الآية دليل على عدم الحرج فى الجنابة بعد طلوع الفجر ، لأن لازم إباحة الجماع إلى الفجر يلزم منه ذلك ولازم الحق حق .

وفى قوله سبحانه وتعالى : (ثم أتموا الصيام إلى الليل) نص صريح على حد وقت الصيام ووجوب الإفطار ، وأن الصائم يعتبر مفطراً حكماً عند

دخول الليل حال غروب الشمس ولو لم يأكل شيئاً ، وقد وردت السنة بتعجيل الفطور ، كما وردت بتأخير السحور ، والكل فى أحاديث كثيرة أقتصر منها على مارواه الإمام البخارى ومسلم وأبو داوود والترمذى عن عمر ابن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا أقبل الليل وأدبر النهار وغابت الشمس فقد أفطر الصائم) . وعلى مارواه البخارى ومسلم ومالك والترمذى عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لايزال الناس بخير ماعجلوا الفطر) . وأخرج فى الموطإ عن مالك بن أنس أنه سمع عبد الكريم بن أبى المخارق يقول : (من عمل النبوة تعجيل الفطر والاستيناء بالسحور) مكتفياً بذلك عن سرد الأحاديث الكثيرة .

ويظهر من نص هذه الآية عدم جواز الوصال ، أى مواصلة الليل مع النهار في الصيام . وقد تضافرت الأحاديث وتكاثرت على النهي عنه ، لأن فيه مشابهة لأهل الكتاب ، وإنهاك للأبدان ، وإضعاف للقوى ، ومخالفة الظاهر ، وتشديد مناف للدين .

وقد أخرج البخارى وغيره عشرات الأحاديث فى النهى عنه أقتصر منها على مارواه عن ابن عمر : أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الوصال فقالوا : إنك تواصل . قال : إنى لست كهيئتكم ، إنى أطعم وأسقى) . وفى رواية أنس بن مالك : (إنى أظل يطعمنى ربى ويسقينى) .

وقد حدث فيما بعد قوم من المؤمنين أجازوا الوصال معللين النهى بأنه يضعف الأمة عن الجهاد ويبغض ضعفاء الإيمان للدين ، وأنه لما استحكم الإيمان فى قلوبهم ، ورسخ فى صدورهم ، وكثر المسلمون واعتزوا على أعدائهم ، جاز الوصال لهم ليلزموا أنفسهم أعلى المقامات ، ولكن تعليلهم هذا ليس كافياً فى تحريمه حتى تسوغ لهم إباحته ، بل هناك علة المشابهة للكفار ، وعلة العسر والحرج والمشقة ، كلها باقية وكلها منافية للدين .

ولايجوز إبطال النصوص بالرأى . ثم إن هذا ليس مما فهم النهى عنه بالقياس لعلة دورية يدور الحكم فيه مع علته وجوداً وعدماً حتى يصح القول بإباحته ، وإنما هو محرم بالنص القاطع المبين فيه العلة الفارقة بين النبى صلى الله عليه وسلم وأمته ، وهى أنه عليه الصلاة والسلام يطعمه ربه ويسقيه بخلاف أفراد الأمة .

وينبغى أن يعلم ضرورة استصحاب النية فى الصيام طيلة النهار ، كما أن تبييت النية قبل الفجر واجب ، فإن العزم على الفطر أو التردد فيه مخل بالصوم ، لأن الأعمال بالنيات ، فاستصحاب حكمها واجب كبدايتها على الأرجح .

وقد سبق التنبيه على صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب ، لأن الصوم لايشترط له الطهارة ، ولأن إباحة الجماع قبل الفجر تستلزم حصول الجنابة ولازم الحق حق ، ولأنه وردت أحاديث كثيرة فى ذلك نقتصر منها على مارواه البخارى ومسلم والإمام مالك فى الموطأ والترمذى والنسائى عن عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما قالتا : إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصبح جنباً من جماع غير احتلام فى رمضان ثم يصوم) . ومارواه مسلم عن عائشة أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستفتيه وهي تسمع من وراء
عائشة أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستفتيه وهي تسمع من وراء
الباب ، قال : تدركنى الصلاة وأنا جنب فأصوم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأنا تدركنى الصلاة وأنا جنب . فقال : لست مثلنا يارسول الله ، قد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر . فقال : والله إنى لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقى) .

وقد تركت ستة عشر حديثاً للاختصار . ثم إن ههنا فوائد :

(أحدها) تعدية الرفث بإلى فى قوله (إلى نسائكم) ولم يقل مع نسائكم ونحوه . قال الأخفش : إنما عدى الرفث بإلى لتضمنه معنى الإفضاء كما فى قوله (وقد أفضى بعضكم إلى بعض) .

(الثانية) أن الله جعل لوجوب الإمساك عن الطعام والشراب وقتاً واضحاً لاشبهة فيه ، وهو طلوع الفجر الصادق الذى ينتشر فيه البياض من المشرق تباشيراً لطلوع الشمس ، وهو ماعبر عنه الشاعر المتنبي بقوله :

وهبنى قلت هذا الصبح ليل أيعمى العالمون عن الضياء ؟

ولكن البشر تغلب عليهم طبائعهم حتى فى مواطن العبادة، فمنهم من يتنطع ويشدد على نفسه بحجة الاحتياط ، وبعضهم يغلب عليه التساهل فى جميع الأمور وبعضهم يسلك الوسط بين الإفراط والتفريط فيسير على مقتضى الشريعة الغراء ، فهذا هو سبب الاختلاف فى تحديد ابتداء الصوم ، هل هو الفجر الصادق أوانتشار البياض للناس بصفة أكثر ، مع أن قواعد الدين مبنية على اليسر فى معرفة التكليف وثبوته وحدوده وأنها وسط بين إفراط الغلاة المتشددين وبين تفريط المتساهلين المتميعين ، وليس فيها شيء من العسر ولا الغموض بحمد الله .

فعلى المسلم سلوك الوسط ومراعاة القواعد بلا تشديد ولا تميع ، وأن يحرص على الاتفاق مع إخوانه المجاورين له ببلده فى العبادة دون إظهار خلاف ، فإن الخلاف يحصل به العيب والازدراء والنفرة وزوال الثقة ، إلى غير ذلك من موجبات الانحلال والتفكك فى المجتمع فالفجر الصادق هو الذى يتضح به بياض النهار وفاصلا من سواد الليل .

(الثالثة) من أكل أو شرب ناسياً فصومه صحيح ، سواء كان الصوم فرضاً أو نفلا ، لقوله تعالى : (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا)[1] ولما رواه البخارى ومسلم والترمذى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من نسى وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صومه فإنما أطعمه الله وسقاه) .

(١) سورة البقرة، آية (٢٨٦).

ووردت أحاديث غير ذلك ، لكن المالكية حملوا هذا على صوم النفل ، وهذا تخصيص بلا مخصص ، وتأويل بلا مسوغ ، ويلزمهم من قولهم ببطلان الفرض أن يسقطوا الكفارة عمن جامع بعد أكله لكون صومه باطلا ، فلم يكن الجماع جناية على صوم باطل ، وهذا فى اللوازم الفاسدة التى تلزمهم على قولهم . أما على القول بنص الحديث وظاهره بعدم البطلان فالمجامع بعد الأكل عليه الكفارة لأنه جنى على صوم صحيح ، وأما من جامع ناسياً ففيه ثلاثة أقوال عند الإمام أحمد وغيره :

(أحدها) لاقضاء عليه ولا كفارة لعموم الأدلة ، وبه قال الشافعى وأبو حنيفة والأكثرون .

(ثانيها) عليه القضاء بلا كفارة وهو قول مالك أيضاً ، ويشكل على مذهبه .

(ثالثها) عليه الأمران ولكنه مخالف لظواهر النصوص الشرعية ، فالأرجح هو القول الأول لموافقته النصوص ، فإن من فعل محظوراً مخطئاً أو ناسياً فلا إثم عليه كما قال صلى الله عليه وسلم : (عفى لأمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) .

وقد ذكرنا الفرق فى الخطأ سابقاً لوجوب البقاء على الأصل واستصحاب الحال في وقت الحل والحرمة ، مع أن الحديث الذي رواه البخاري عن أسماء بنت أبى بكر قالت : (أفطرنا يوماً من رمضان فى غيم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم طلعت الشمس) وهذا يدل على شيئين :

(أحدهما) أنه لايستحب التأخير عند وجود الغيم حتى يتيقن الغروب فإنهم لم يفعلوا ذلك ولم يأمرهم به النبى صلى الله عليه وسلم ، مع أن الصحابة أعلم وأطوع لله ممن جاء بعدهم .

(ثانيهما) عدم وجوب القضاء لأنه لم ينقل عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه أمرهم به ، وقد يرد الإشكال من كلام هشام بن عروة لما قيل له : أمروا بالقضاء ؟ قال : أو بد من القضاء ؟ لكن يقال إنه قال هذا برأيه ، إذ لم يرد فى الحديث ذكر للقضاء فإنه ليس عنده علم بذلك ، كما روى معمر قال : سألت هشاماً فقال : لا أدرى قضوا أم لا ؟ كما ذكره البخارى عنه . وقد نقل هشام عن أبيه عروة أنهم لم يؤمروا بالقضاء .

وقوله تعالى : (ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد) هو استثناء من إباحة عموم المباشرة فى الليل ، كالاستدراك لحرمة الاعتكاف : والاعتكاف: لغة ملازمة المرء للشىء وحبس نفسه عليه حقاً كان أو باطلا ، ومنه قوله تعالى : (يعكفون على أصنام لهم — ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون) . والاعتكاف الشرعى : هو الخلوة إلى الله بالمكث فى المساجد تقرباً إليه ، وهو من الشرائع القديمة ، ولذا قال الله لخليله إبراهيم : (وطهر بيتى للطائفين والعاكفين) . وقال الشاعر :

وظل بنات الليل حولى عكفاً   عكوف البواكى بينهن صريع

ولما كان المعتكف ملازماً للعمل بطاعة الله لزمه هذا الاسم مدة اعتكافه ، ولا يصح إلا فى المسجد ، وقد نهى الله المعتكف عن عموم المباشرة التى حقيقتها ملاقاة البشرتين ، سواء الجماع أو المداعبة والتقبيل ، لئلا ينصرف قلب المعتكف عن الله إلى غيره من الشهوات المشغلة له عن إتمام قربته ، فإن باشر بالجماع بطل اعتكافه وحبط أجره ، وإن باشر بما دونه من غير إنزال لم يبطل ، بل أتى بعمل مكروه ينقص من أجوره وحظوظه العالية ، وهذا إذا قصد بها التلذذ ، فأما الذى لايقصد منه التلذذ ، كملاحظة الشعر أو البدن من القمل وكحك الأوساخ أو ترجيل الشعر ، فلا بأس به ، لأن

عائشة كانت ترجل شعر النبى صلى الله عليه وسلم وهو معتكف .

وقوله تعالى : (تلك حدود الله فلا تقربوها) تلك إشارة إلى هذه الأوامر والنواهى من أول الكلام فى الصيام وأحكامه وملابساته . (حدود الله) محدوداته التى قدرها بصفات مضبوطة ومقادير محدودة . وحد الشىء : مقطعه ومنتهاه . والحدود : الحواجز . وحد الدار : ما يمنع غيرها من الدخول فيها . وسمى الحديد حديداً لأنه يمنع من وصول السلاح إلى البدن . وحدود الله ما يمنع من مخالفتها . وسميت حدوداً لأنها تمنع أن يدخل فيها ماليس منها وأن يخرج منها ماهو منها .

وقوله سبحانه : (فلا تقربوها) مبالغة فى التحذير وإرشاد إلى الاحتياط فهو أبلغ من قوله فى حدود الله بالطلاق (فلا تعتدوها) فنهى عن مجرد القرب لتكون منطقة أمان ، لأن من قرب من الحد أوشك أن يعتديه ، كما قال صلى الله عليه وسلم : (كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه) .

فالإنسان لايملك نفسه فى كل وقت ، فقد تجر المداعبة إلى فعل مايحرم فيفسد صومه أو اعتكافه ، وقد يبالغ فى المضمضة فيبتلع الماء ، أو يباشر مباشرة خارجية فينزل ، ونحو ذلك من مقاربة الحدود التى ينبغى الابتعاد عنها والتحفظ منها .

وقد حذرنا الله من قربان حدوده فى آية الصيام هذه ، وآية الزنى ، وآية مال اليتيم ، لما يترتب على القربان فى هذه الأشياء من عظيم المفاسد وشناعة الجريمة ، فاتقاؤها بعبد المقاربة أسلم ، والنهى عن قربان حدود الله حسياً يشمل قربانها معنوياً بالتأويل والتحريف وإخضاع نصوصها للأهواء والآراء ، بل ينبغى قبولها بمحض التسليم والاتباع .

وفى هذه الآية تخطئة لمن يعمل باجتهاده فى أمر دينى يجب عليه فيه

مراجعة نصوصه ، كما فيها إشارة إلى سلوك الاحتياط اليسير فى الإمساك والإفطار بدون تنطع ، بشرط أن لاينفرد باحتياطه عن جماعة المسلمين ، وأن لايعارض النصوص الواردة بتعجيل الفطور وتأخير السحور ، فإن مخالفة السنة لاتجوز باسم الاحتياط ولا غيره . ثم إن ههنا فوائد :

(أحدها) قال بعض الصحابة والتابعين وبعض العلماء فى سائر القرون : لايصح الاعتكاف إلا فى المساجد التى بناها نبى ، كالمسجد الحرام ، ومسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمسجد الأقصى . وقد احتج بعضهم بقوله تعالى : (وطهر بيتى للطائفين والعاكفين) . وبعضهم احتج بحديث : (لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد) ، ولكن آية الصيام تبطل احتجاجهم مع قول الأكثرين بصحة الاعتكاف فى كل مسجد . وقال بعضهم بتخصيص المسجد الذى تقام فيه الجمعة حتى لايضطر للخروج منه إليها ، والصحيح حمل الآية على عمومها فى كل مسجد .

(ثانيها) أقل الاعتكاف يوماً وليلة ، فلو نذر الاعتكاف ليلة لزمه اعتكاف يومها معها ، وكذلك إن نذر اعتكاف يوم لزمه اعتكاف ليلته . وقال الشافعى وبعض الأئمة والعلماء : لا حد للاعتكاف فلا يقيد بيوم وليلة .

(ثالثها) قال بعضهم : لايجوز الاعتكاف بغير صوم ، والمشهور جوازه فى كل حالة .

(رابعها) لايجوز للمعتكف الخروج من معتكفه إلا لضرورة ، كعلاج مرض ونحوه ، ولقضاء الحاجة التى لابد منها ، فإذا خرج فليرجع عند انتهاء حاجته وزوال ضرورته وليبن على ما مضى من اعتكافه . ورخص بعضهم له عيادة المريض وشهود الجنازة . وبعضهم قيد الرخصة بالنفل لا بالاعتكاف الواجب . وبعضهم جوز له الاشتراط بالخروج من معتكفه للعيادة وقضاء

الحوائج ، وله الخروج لصلاة الجمعة ، ومتى اجتمع واجبان أحدهما أوكد من الآخر قدم الآكد منهما .

(خامسها) يفسد الاعتكاف إذا أتى بمعصية كبيرة ، لأن ترك ماحرم الله عليه أعلى منازل الاعتكاف ، فإذا انتهكه انخرمت عبادته ، ويندب الدخول فى الاعتكاف بعد صلاة الفجر . والله أعلم .

(سادسها) الجماع يفسد الصوم ويوجب الكفارة ، وهى عتق رقبة ، فمن لم يجدها صام شهرين ، فمن لم يستطع أطعم ستين مسكيناً ، وفى الكفارة على المرأة المختارة خلاف أصحه عدم الوجوب ، ومع الإكراه لاكفارة عليها قولا واحداً ، ولاتجب الكفارة بغير الجماع أو الإنزال بالمساحقة .

(سابعها) من طلع الفجر عليه وهو مجامع فاستدام الجماع فعليه القضاء والكفارة فى قول مالك والشافعى وأصح أقوال الحنابلة ، لأنه ترك صوم رمضان بجماع أثم به لحرمة الصوم . وقال أبو حنيفة بوجوب القضاء دون الكفارة لأنه وطئ لم يصادف صوماً صحيحاً .

(ثامنها) النزع حين طلوع الفجر ، قال بعضهم تجب الكفارة فيه ، لأنه يتلذذ به كما يتلذذ بالإيلاج . وقال الأكثرون : ليس فيه كفارة لأنه ترك للجماع فلا يتعلق به شىء . وقال مالك يبطل صومه ولا كفارة عليه، لأنه لايقدر على أكثر مما فعله فى ترك الجماع فأشبه المكره ، وهنا هو الصحيح ولا وجه لوجوب الكفارة عليه أبداً ، بل عليه أن يمسك وصومه صحيح . وهذه المسألة من مضحكات المعترضات ، ولولا تدوينها فى أشعار الفقهاء ومتونهم وشروحهم لما تعرضت لها بالذكر ، ولكن قال الإمام الموفق فى المغنى : (وهذه المسألة تقرب من الاستحالة ، إذ لايكاد يعلم أول طلوع الفجر على وجه يتعقبه النزع من غير أن يكون قبله شىء من الجماع فلا حاجة إلى فرضها والكلام فيها) .

وقوله سبحانه وتعالى: (كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون) معناه أن الله كما بين لكم أحكام الصيام وما قبله من مشروعية أكل الطيبات وتفصيل القصاص ومشروعية الوصية ، وما أوضح لكم قبله من حقيقة التوحيد وكشف المخالفين له من المنافقين واليهود ، وإيضاح ما قام به إبراهيم من الوفاء بالتكاليف المهمة التى جعله الله بها إماماً للناس ، وفضيحة مفتريات اليهود والنصارى بزعمهم اتباعه والانتساب إليه ، وهم أبعد الناس عن دينه الإسلامى ، وما أقامه من الدلائل الواضحات على ألوهيته سبحانه وتعالى ، إلى غير ذلك من تركيز العقيدة ، فإنه سيبين آياته للناس .

والآيات هى العلامات الهادية إلى الحق مما شرعه الله لإصلاح قلوب الإنسانية وتوجيهها إلى الصراط السوى . يعنى فكما بين لكم فى أوائل هذه السورة من أسراره فى خلقه ومعالم دينه إلى فرضية الصيام بهذا البيان الواضح الوافى ، فكذلك يبين الله آياته للناس (لعلهم يتقون) يعنى أن المقصود الأعظم من تكاليف الدين وتشريعاته فى وحيه المبارك وإخباره عما جرى على الأمم من العقوبات ، ليتقوا عذاب الدنيا والآخرة ، باجتناب المعاصى ، والكف عنها ، وامتثال المأمور ، والحرص على أدائه بوجه صحيح .

وهذا التعبير بالتقوى فى ختام هذه الآية مشعر بأن المراد من تشريعات الإسلام هو التقوى من كل الوجوه ، فإن فى التزامها كبح لجماح النفس ، وكسر لشهوتها ، وقمع لأهوائها ، وردع لها عن الأشر والبطر والفواحش ، كما أن فى التزامها ورعايتها احتقار وتهوين للذات الدنيا ورئاستها ، وعلى الأخص فى الصوم ، فإنه يورث التقوى ، لما فيه من انكسار الشهوة ، وانقماع الهوى ، ومغالبة الشهوات ، ومجاهدة النفس على ترك مألوفاتها ومحبوباتها التى يتفانى الإنسان فى تحصيلها ، كما قيل فى المثل السائر : (المرء يسعى لغاويه) . فالصوم يسهل على أهله اتقاء الله بترك مألوفاتهم ومحبوباتهم الغالية ، وإذا سهل عليهم اتقاء الله بذلك كان اتقاء الله بترك سائر الأشياء أخف وأسهل .

وقد جاء النص بحصول التقوى معدى بحرف (لعل) المفيدة الترجى ، لأن الملتزم شرائع الله يقوى رجاؤه فى التقوى لفعله أسبابها ، فالتزام عبادته فى الصوم وغيره من تنفيذ المأمور جامع لأسباب التقوى ، ولهذا ختم الله آية الأمر بعبادته على الإطلاق بالتقوى فى قوله: (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) . وختم آيات القصاص بقوله : لعلكم تتقون) وختم الآية الأولى من فرضية الصيام بذلك . ثم ختم موضوع الصيام بقوله (لعلهم يتقون) .

فوائد من أحكام الصيام

(أحدها) من ذرعه القىء بدون إرادة منه فصومه صحيح بخلاف من استقاء مختاراً فإن عليه القضاء وليس عليه كفارة على الأصح من الأقوال ، لأنه لايتقيأ إلا لحاجة صحية أو عفة نفسية ، كما استقاء أبو بكر مما أكله من كسب المتكهن .

(ثانيها) الحجامة مفطرة للحاجم والمحجوم ، كما وردت الأحاديث الكثيرة فى ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو الصحيح الذى يجب العمل به وترك ماسواه ، لأن القائلين بعدم الإفطار بها ليس عندهم مايصح الاستدلال به قطعاً سوى حديث مطعون فى زيادة فيه لمخالفتها الواقع وهو حديث : (احتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محرم صائم) . والصحيح الثابت أنه احتجم وهو محرم ليس بصائم .

وقد طعن الإمام أحمد وغيره من أئمة الحديث بهذه الزيادة وردوا هذا الحديث بسببها ، وقالوا إن هذه الكلمة خطأ ، وأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن صائماً ، لاسيا وهو ينهى عن الصوم فى السفر ، وقد سمى الصائمين بالعصاة . قال مهنا سألت أحمد عن حديث ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم احتجم وهو محرم صائم) فقال : ليس فيه (صائم) إنما هو محرم — ذكره سفيان عن عمرو بن دينار عن طاووس عن ابن عباس (احتجم النبى صلى الله عليه

وسلم على رأسه وهو محرم) . وعن طاووس وعطاء مثله عن ابن عباس . وعن عبد الرزاق عن معمر عن ابن خيثم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مثله أيضاً . وهؤلاء أصحاب ابن عباس لايذكرون صائماً .

قال الشيخ ابن تيمية قلت : وهذا الذى ذكره الإمام أحمد هو الذى اتفق عليه الشيخان البخارى ومسلم ، ولهذا أعرض مسلم عن الحديث الذى ذكر حجامة الصائم ولم يثبت إلا حجامة المحرم ، وتأولوا أحاديث الحجامة بتأويلات ضعيفة ، كقولهم كانا يغتابان ، وقولهم أفطر لسبب آخر . وأجود ماقيل ماذكره الشافعى وغيره أن هذا منسوخ . فإن هذا القول كان فى رمضان واحتجامه وهو محرم كان بعد ذلك ، لأن الإحرام بعد رمضان . وهذا أيضاً ضعيف ، بل هو صلوات الله عليه أحرم سنة ست عام الحديبية بعمرة فى ذى القعدة ، وأحرم من العام القابل بعمرة القضية فى ذى القعدة ، وأحرم من العام الثالث سنة الفتح من الجعرانة ، وأحرم سنة عشر بحجة الوداع فى ذى القعدة . فاحتجامه صلى الله عليه وسلم وهو محرم صائم لم يبين فى أى الإحرامات كان . والذى يقوى أن إحرامه الذى احتجم فيه كان قبل فتح مكة هو قوله (أفطر الحاجم والمحجوم) فإنه قال هذا عام الفتح بلا ريب . هكذا فى أجود الأحاديث .

وروى أحمد بإسناده عن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى على رجل يحتجم فى رمضان فقال : (أفطر الحاجم والمحجوم) . وكذا ورد فى حديث شداد بن أوس .

وهنا فى الحديثين قال فيهما الترمذى سألت البخارى فقال : ليس فى هذا الباب أصح من حديث شداد بن أوس وحديث ثوبان — إلى أن قال : ومما يقوى أن الناسخ هو الفطر بالحجامة أن ذلك رواه عنه خواص أصحابه الذين كانوا يباشرونه حضراً وسفراً ويطلعون على باطن أمره مثل بلال وعائشة ومثل أسامة وثوبان مولياه . ورواه عنه الأنصار الذين هم بطانته

مثل رافع بن خديج وشداد بن أوس .

وفى مسند أحمد عن رافع بن خديج عنه صلى الله عليه وسلم قال : أفطر الحاجم والمحجوم) قال أحمد : أصح شىء فى هذا الباب حديث رافع .

وكلام الشيخ طويل فى هذا فنكتفى بما ذكرنا . والعجب ممن اعتمد على حديث احتجامه صلى الله عليه وسلم مع ما اتضح من كونه ليس فى حال صيام على أنه لو صح أنه كان صائماً فإن حكاية الفعل لاتعارض النصوص القولية ، بل تسقط حكاية الفعل ويبطل العمل بها لأمور ستة مبسوطة فى الأصول ، فكيف أغفلوها ؟ حتى إن بعضهم لم يعتبر النصوص القولية ناسخة لحكاية الفعل التى فيها ما فيها ، فلعل التقليد أوقفهم عن البحث رحمهم الله . وقد اتضح أنه لم يعتمر فى رمضان ، وحكاية الفعل يتطرق إليها من احتمال الخصوصية أو البقاء على أصل الإباحة والتمسك بالبراءة أو احتمال النسخ أو حصول الضرورة أو غير ذلك مما لا يتطرق إلى هذه الأحاديث التى تتضمن إعطاء حكم كلى وإظهار شرع عام فكان العمل بها أولى بل أوجب . وقد أطلت الكلام على هذا لأهميته .

وقد أوضح العلماء أن الفطر بالحجامة على وفق الأصول والقياس ، فليس مخالفاً لها ، بل هو من جنس الفطر بدم الحيض والاستمناء والتقيؤ عمداً ، فإنه يفطر بأى وجه أراد إخراج الدم ، كما أنه يفطر بأى وجه أراد إخراج القىء ، وبعض العلماء قال لا يفطر بالفصاد ، وليس بصحيح ، لأن الدم من أعظم المفطرات ، فهو حرام فى نفسه ، لما فيه من طغيان الشهوة والخروج عن العدل ، والصائم مأمور ، بحسم مادته ، فالدم يزيد الدم ، فهو من جنس المحظور . وبعضهم قال يفطر المحجوم دون الحاجم ، وهذا مخالفة للنص بسبب عدم فهم العلة ، فالعلة هى أن الحاجم يجتذب الهواء الذى فى القارورة بامتصاصه ، والهواء يجتذب مافيها من الدم ، فربما صعد مع الهواء شىء من الدم ودخل فى حلقه وهو لا يشعر أو يحصل امتزاج للهواء

مع مقدماته ، والحكمة إذا كانت خفية أو منتشرة غلق الحكم المظنة كالنائم الذى قد تخرج منه الريح وهو لايدرى يؤمر بالوضوء .

ثم ليعلم أن الصوم عبادة لا تتكرر ، فينبغى الاحتراز فيه والتحفظ من كل ما فيه شبهة ، فضلا عما ورد النص بإبطال الصوم فيه ، مع العلم أن بعض العلماء أوجبوا الكفارة فى الحجامة وفى فعل كل مفطر ، لأنه جناية على عبادة الصيام ، لافرق بينهما وبين الجماع ، فليحذر من ذلك ، وإن كان بعضهم قصر الكفارة على الجماع والإنزال بالمساحقة .

(ثالثها) من أفسد صومه بشئ من المفطرات عمداً ثم جامع ، فبعضهم قال ليس عليه كفارة لجماعه فى صوم فاسد ، والأكثرون أوجبوا الكفارة ، وغلظوا عليه ، لأنه عصى مرتين بفطره وجماعه ، ومذهبهم أصح المذاهب وأقومها ، لأنهم لو لم يوجبوا الكفارة لفسحوا المجال لكل شهوانى حيوانى أن يفسد صومه بالأكل ونحوه ليجعله ذريعة إلى مقصوده ، وكلما عظم الذنب وجب أن تكون العقوبة أبلغ وأفظع .

(رابعها) تكره المباشرة والتقبيل وتكرار النظر للشباب ، ويباح للشيخ تقبيل المباح ونحوه ، لكن من أمنى أو أمذى بذلك فسد صومه .

(خامسها) خروج الدم الذي لا يمكن الاحتراز منه ، كدم المستحاضة

والجروح ، والذى يرعف لايخل بالصوم ، بخلاف دم الحيض والنفاس فإنه يفطر .

(سادسها) يكره ذوق الطعام لغير حاجة ولا يفطر بدون مبالغة ، والكحل الذى يصل إلى الدماغ يفطر ، كالطيب المستنشق عند الحنابلة والمالكية ، أما عند أبى حنيفة والشافعى فلا بأس به .

(سابعها) السواك ورد فى فضله للصائم أحاديث لم يثبت منها شيء ، ولكنه جائز بلا نزاع قبل الزوال ، وأما بعده فقد قال بعضهم بكراهته ، ولكن الشيخ ابن تيمية يقول : لم يقم على كراهيته دليل شرعى يصلح أن يخص عمومات النصوص ، وقياسه على دم الشهيد ونحوه ضعيف .

(ثامنها) مشروعية المضمضمة والاستنشاق حالة الصيام باتفاق العلماء ، إلا أنه لايبالغ فيهما كخارج الصيام ، كما فى حديث لقيط بن صبرة : (وبالغ فى الاستنشاق إلا أن تكون صائماً) ، فإن بالغ الصائم فيهما ووصل إلى حلقه شيء من الماء لم يضر صومه عند أحمد .

(تاسعها) لايضر ما وصل إلى الجوف أو الحلق أو الدماغ من غير قصد ، كالغبار والدخان والذباب ودخان الطيب إذا كان من غير استنشاق ، وكذلك الكحل والإدهان فى الخارج بما ليس من طبعه سرعة السريان كالنفط فى البدن إذا تعمده الصائم قاصداً ، وما عدا ذلك فليس بمحظور ولا بمفطر .

(عاشرها) مضغ العلك بلا إدخال ولا ابتلاع ، وهو نوعان : نوع رديئى يتحلل فى الفم ، فهذا لا يجوز إلا أن لا يبتلع ريقه الذى تحلل فيه أجزاء منه ، فإن ابتلع ريقه فقد أفطر . والنوع الثانى : ما كان قوياً لا يتحلل فيجوز .

(حادى عشرها) الحقنة ومداواة المأمومة وهى الشجة فى الرأس تصل إلى أم الدماغ ، والجائفة وهى جراحة تصل إلى الجوف تكلم عليها بعض الفقهاء رحمهم الله فجعلوا دواءها من المفطرات بقياس يصعب إثباته لعدم وجود العلة ولوجود الفارق المفسد للقياس .

وقد أبطل الشيخ ابن تيمية قياسهم من وجوه كثيرة ، وحقق عدم الإفطار بعلاج الجائفة والمأمومة ، لأن الذى يصل إلى الدماغ أو الجوف ليس مغذياً

ولا نافعاً للدم ولا يقصد به ذلك ، وإنما هو علاج ضرورى قد يرشح بعض أجزاء منه إلى ذلك . وقد كان المسلمون فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يجرح أحدهم فى الجهاد أو فى غيره جروحاً مأمومة أو جائفة ونحوهما مما يضطرون إلى علاجها ، ولم ينقل عنه صلى الله عليه وسلم خبر بمنعهم أو تنبيههم على أنها مفطرة لصومهم ، فعلم إباحة علاجها على الإطلاق دون استثناء أو تحفظ ، وكل ما تعم به البلوى لابد أن يبين الرسول حكمه بياناً عاماً شافياً ، إذ تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز ، وهو الناصح الأمين صلى الله عليه وسلم ، بين لأمته ماهو أخف من ذلك بكثير ، بل بين لهم آداب قضاء الحاجة ، فلو كان هذا مما يضر أمته فى عبادتها لاستحال سكوته بدون بيان .

وأما الحقنة فقالوا : لا تفطر إذا كانت من طريق الإحليل ، وتفطر إذا كانت من طريق الدبر . والشيخ ابن تيمية جعلها لا تفطر من كلا الطريقين . وكلام الفقهاء أحوط ، خصوصاً وأنه يوجد فى هذا الزمان حقن غذائية توصل من الدبر إلى الأمعاء .

هذا وإنى لم أنقل كلام الشيخ حرصاً على الاختصار من جهة ، ولكونه مطبوعاً مشهوراً فى رسالة خاصة بالصيام ، وفى فتاويه المشهورة فى المجلد الخامس والعشرين .

وفى هذا الزمان ظهر حقنات طبية تسمى بالإبرة ، وقد يضطر الصائم إليها ، وبعض العلماء قال بتحريمها والإفطار بها ، وبعضهم جوزها وحكم بعدم الإفطار بها ، وينبغى إمعان النظر فيها وفى مادتها ، فهى نوعان : نوع يحقن من العضل (الورك) ونوع فى الوريد (إبرة عرق) . كما أن فيها ما يحمل التغذية للبدن ، وفيها ماهو دواء صرف .

فعلى المفتى أولا مراعاة الضرورة الداعية إليها ، فإن كانت ضرورة ملحة لاتتحمل التأخير إلى بعد الغروب وكانت علاجاً صرفاً ساغ له الإفتاء بجوازها قياساً على علاج المأمومة والجائفة أو قياساً على الحقنة من الإحليل ، وإن كان فيها غذاء ينتعش به البدن ويتغير بسببه جهاز الهضم ودورته فالأولى أن يسلك الاحتياط ، وكذلك مالا يضر تأخيره إلى الليل فليؤخر .

أما الحقنة من الوريد فلا شك فى تأثيرها على المعدة وسائر الأجهزة الداخلية ، فلا يجوز استعمالها نهاراً ، لأن الصوم ينتهى عند الليل ولا يتكرر فى السنة ، فينبغى الاحتياط والتحفظ .

(ثانى عشرها) ليلة القدر ترجى فى الأوتار من العشر الأواخر وأحراها ليلة السابع والعشرين أو الحادى والعشرين ، وحظ الأمة من ليلة القدر أكمل من حظهم من ليلة المعراج ، بخلاف الرسول صلى الله عليه وسلم فإن ليلة الإسراء والمعراج أفضل فى حقه وأكمل حظاً . وقد غيب الله عنا علم ليلة القدر لنجتهد طيلة العشر فى التهجد والقراءة والضراعة ، ولا يجوز إحياء غيرها كليلة الإسراء أو النصف من شعبان ، فإنه لم يرد فيها نص صحيح ولا حسن ، بل هى بدعة .

(ثالث عشرها) يسن صوم التطوع وأفضله صوم يوم وإفطار يوم إذا لم يحصل فيه إرهاق أعصاب ، ولا قعود عن واجب ، ولا تعطل عن معيشة ، ولا إضرار بنفس أو أهل أو مال ، كما يسن صيام يوم الاثنين والخميس ، وصيام أيام البيض من كل شهر ، وصيام عشر ذى الحجة لغير الحاج وأفضلها يوم عرفة وهو كفارة سنتين ، وصوم عاشوراء على تفصيل فيه ، ويكره إفراد شهر رجب بالصوم ، وكذا يوم الجمعة والسبت ، إلا أن يوافق عادة مسنونة ، ولم يرد حديث صحيحٌ ولا حسنٌ ولا ضعيفٌ فى أى عمل يعمل فى شهر

رجب سوى أحاديث منكرة مكذوبة باتفاق أهل النقل ، ولم يعتمر صلى الله عليه وسلم فى رجب قطعاً ومانسب عنه فهو غلط بتحقيق أهل النقل ، وكذا ليلة النصف من شعبان لم يرد فيها ما يعتمد عليه قطعاً ولا فى ليلة المولد أو المعراج ، فجميع ما يفعل فيهما بدعة لم يرد بها نص ولا فعل صحابى أو أحد من التابعين .

(رابع عشرها) وردت أخبار كثيرة مكذوبة فى يوم عاشوراء **من أنه اليوم الذى تاب الله فيه على آدم ، وأنه يوم استواء السفينة على الجودى ، ويوم رد يوسف على يعقوب ، وإنجاء موسى وقومه من الغرق ، ونجاة إبراهيم من النار ، وفداء إسماعيل ، وشفاء أيوب ، وغير ذلك من الأكاذيب التى روجها المبتدعة المبطلون والجهال المقلدون ، وقد وضعوا حديث التوسعة (من وسع على أهله يوم عاشوراء وسع الله عليه سائر السنة) . وقد قرر علماء الحديث أنه مكذوب على رسول الله صلى الله عليه وسلم .**

وقد عزاه بعض نواصب الكوفة إلى رواية سفيان بن عيينة عن إبراهيم ابن المنتشر عن أبيه ، وإبراهيم كوفى ، وأهل الكوفة كان فيهم طائفتان متناقضتان فى المذهب : طائفة تزعم موالاة الحسين وأهل بيته رضى الله عنهم وتجعل يوم عاشوراء مأتماً للندب والنياحة وإنشاء قصائد الحزن وإعادة دعوى الجاهلية بأبشع مظهر ، وعارض هؤلاء طائفة النواصب المتعصبين على الحسين وأهل بيته ، وهم ما بين ضلال وجهال ، قابلوا الكذب بالكذب ، والفاسد بالفاسد ، والشر بالشر ، والبدعة بالبدعة ، فوضعوا الآثار فى شعائر الفرح والسرور من مندوبية الكحل والخضاب والزينة وتوسيع النفقات وطبخ الأطعمة الخارجة عن العادة ونحوها من البدع .

ولم يسن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا خلفاؤه الراشدون فى يوم عاشوراء شيئاً من هذه الأمور ، لاشعائر الحزن والترح ، ولا شعائر السرور

والفرح ، ولكنه صلى الله عليه وسلم لما استقر بالمدينة وجد اليهود يصومون هذا اليوم ، فقال لهم: ماهذا ؟ فقالوا: هذا يوم نجى الله فيه موسى من الغرق فقال : نحن أحق بموسى من اليهود : فصامه وأمر بصيامه . وكذلك كانت قريش تعظمه فى الجاهلية ويقال إن صومه كان مشروعاً على من قبلنا وإنه استمر صيامه حتى نسخ الله وجوبه بصوم رمضان .

وقال ابن تيمية : اليوم الذى أمر الناس بصيامه كان يوماً واحداً ، فلما كان العام القابل فرض صوم رمضان فنسخ صيام عاشوراء ، ثم فى آخر عمره بلغه تعظيم اليهود له بإنجاء موسى فيه من الغرق ، فقال : نحن أحق بموسى منهم ، لئن أحيانى الله لأصومن التاسع مع العاشر ، وهذا لحرصه على مخالفة اليهود ، ولا يشابههم فى اتخاذه عيداً ، وكان من الصحابة والعلماء من لا يصومه ولا يستحب صومه ، بل يكره إفراده بالصوم ، والصحيح استحباب صيامه .

قال ابن القيم فى زاد المعاد : مراتب صومه ثلاثة ، أكملها أن يصام قبله يوم وبعده يوم ، ويلى ذلك أن يصام التاسع والعاشر ، وعليه أكثر الأحاديث ، ويلى ذلك إفراد العاشر وحده بالصوم ، وأما إفراد التاسع فمن نقص فهم الآثار . اهـ .

نعود إلى حديث التوسعة المكذوب فنقول : قد قال حرب الكرمانى فى مسائله : سئل أحمد بن حنبل عن هذا الحديث : (من وسع على أهله يوم عاشوراء) فلم يره شيئاً . قال ابن تيمية : وأعلى ماعندهم أثر يروى عن إبراهيم بن المنتشر ، قال فيه سفيان بن عيينة : جربناه منذ ستين عاماً فوجدناه صحيحاً . وإبراهيم من أهل الكوفة ، ولم يذكر ممن سمع هذا ولا عمن بلغه ، فلعل الذى قال هذا من أهل البدع الذين يبغضون علياً وأصحابه ويريدون أن يقابلوا الشيعة بالكذب مقابلة البدعة بالبدعة .

وأما قول ابن عيينة فلا حجة فيه ، فإن الله أنعم عليه برزقه ، وليس فى إنعام الله بذلك مايدل على أن سبب ذلك هو التوسيع يوم عاشوراء . وقد وسع الله على من هم أفضل الخلق من المهاجرين والأنصار ، ولم يكونوا يقصدون أن يوسعوا على أهليهم يوم عاشوراء بخصوصه . وهذا كما نرى كثيراً من الناس ينذرون نذراً لحاجة يطلبها فيقضى الله حاجته فيظن أن النذر كان هو السبب . ا هـ . بتصرف .

(قلت) كثيراً ما يوسع الله على الفسقة الذين لايقيمون لعاشوراء وزناً كما لا يقيمون لغيره ، ثم إن يوم عرفة ويوم النحر أفضل من عاشوراء باتفاق الأمة ، ولم يرد نص بالتوسعة على الأهل فيهما ، مع أن التوسعة فيهما أولى وأفضل ، لكن لما لم يكن للمبتدعين حاجة نفس فيهما لم يختلقوا لهما حديثاً ، ثم إن التوسعة مطلوبة من ولى الأسرة فى كل وقت حسب إمكانه . فما معنى تخصيص عاشوراء على غيره فى الأيام التى هى أفضل منه ، بل حتى شهر رمضان الذى هو أفضل وأفضل لم يرد فيه تخصيص بالتوسعة .

(خامس عشرها) سئل الشيخ ابن تيمية عن عشر ذى الحجة والعشر الأواخر من رمضان أيهما أفضل ؟ فأجاب : أيام عشر ذى الحجة أفضل من أيام العشر من رمضان . والليالى العشر من رمضان أفضل من ليالى عشر ذى الحجة .

قال ابن القيم : وإذا تأمل الفاضل اللبيب هذا الجواب وجده شافياً كافياً فإنه ليس من أيام العمل فيها أحب إلى الله من أيام عشر ذى الحجة ، وفيها يوم عرفة ، ويوم النحر ، ويوم التروية ، وأما ليالى عشر رمضان فهى ليالى الإحياء التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحييها كلها وفيها ليلة خير من ألف شهر ، فمن أجاب بغير هذا التفصيل لم يمكنه أن يدلى بحجة صحيحة .

(سادس عشرها) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم أكثر

شعبان لأنه يطعم ويسقى ليس كأمته كما نص على ذلك ، فيكره صيام شعبان لأمته ، لأنه يضعفهم عن صوم رمضان ، ولكن صيام وسطه أيام البيض ، أو صوم الاثنين والخميس لمن جعلها عادة ، فهو مندوب ولا يضعف عن صيام رمضان .

(سابع عشرها) ذكر الشيخ ابن تيمية قاعدة مهمة فى الدين فقال : (ومما ينبغى أن يعرف أن الله ليس رضاه أو محبته فى مجرد عذاب النفس وحملها على المشاق حتى يكون العمل كلما كان أشق كان أفضل ، كما يحسب كثير من الجهال أن الأجر على قدر المشقة فى كل شىء : لا : ولكن الأجر على قدر منفعة العمل ومصلحته وفائدته ، وعلى قدر طاعة أمر الله ورسوله ، فأى العملين كان أحسن وصاحبه كان أطوع وأتبع كان أفضل ، فإن الأعمال لا تتفاضل بالكثرة وإنما تتفاضل بما يحصل فى القلوب حال العمل .ا هـ .

(ثامن عشرها) من أفطر فى رمضان عامداً مستحلا له بلا عذر مسوغ ولا جهل بالتحريم وجب قتله ، والجاهل يعرف حتى يمتثل ، والفاسق التارك للصوم بلا جحود ولا استحلال يعاقبه الإمام أو نائبه حسب مايراه من إصلاح حاله وفق اجتهاده . ومن زنى فى رمضان يحده الإمام حد الزنى أو يقتله إن كان مستحلا له .

(تاسع عشرها) الصيام عبادة لله وحده لا يجوز إيقاعه لغير الله ، فمن صام لغير الله من أجل وطن أو انتصار لشخص أو قوم فهو مشرك شركاً إذا أصر عليه بعد تبليغه بحكم الله كان كافراً يجب على المسلمين أن يعاملوه معاملة الكفار . فصوم بعض الزعماء وغيرهم من أدعياء القومية والوطنية غضباً للوطن أو نصرة لمن يرونه وطنياً ونحو ذلك مما جلبته المذاهب الغربية هو شرك قد يؤدى إلى الكفر كما بيناه ، فالصوم عبادة دينية محضة من حرفها لغير الله فقد خرج من الدين .

(العشرون) مايفعله الجهال والمترفون من مشابهة النصارى والمجوس فى أعيادهم أو مستقبل صيامهم أو نهايته من أنواع الطبخ أو الهدايا أو المراسيم والمهرجانات ، فهو حرام ، ومخالطتهم فى أعيادهم تعتبر من شهود الزور الذى مدح الله المؤمنين بتركه . قال الضحاك فى قوله تعالى : (والذين لا يشهدون الزور) . قال : عيد المشركين .

وروى بإسناده عن ابن سلام عن عمرو بن مرة . (والذين لايشهدون الزور) لايماكثون أهل الشرك على تركهم ولا يخالطونهم ، وذلك منه ماهو مكروه ، وما هو حرام ، وما هو مخل بالعقيدة والعياذ بالله . فالطعام الذى يعمل فى مستقبل صيامهم أو نهايته مكروه فعله من المسلمين ، وإهداؤه لهم حرام لتشجيعهم ، وأما مشاركتهم فى أعيادهم ومخالطتهم بها فحرام لتشجيعهم على الباطل وترك التميز الواجب عنهم .

وأما قول القائل : المعبود واحد وإن كانت الطرق مختلفة ، وغير ذلك من الأقوال والأفعال التى تتضمن أن الملة النصرانية ونحوها من ملل الكفر موصلة إلى الله ، وقد ذم الله أهلها وسماهم مفترين ، وأما تضمن استحسان بعض ما فيها مما يخالف دين الله فهذا كفر بالله ورسوله وكتابه ، إذ كيف يجعل دين النصارى ونحوه موصلا إلى الله ، والله يحكم بكفرهم ويأمرنا بقتالهم فى قوله : (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم — لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) ؟ .

ويقول فى الآيات (٢٩ - ٣٢) من سورة التوبة : (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله — إلى قوله : المشركون).

ويقول فى سورة طه : (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض

وتخر الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً) .

فكيف يجرؤ مسلم على استحسان شيء من دينهم الباطل أو يزعم أنه موصل إلى الله ؟ هذا عين الكفر والضلال . وقد سبق فى تفسير سورة الفاتحة أن سلوك الصراط المستقيم يقتضى مخالفة جميع أهل الكفر ومجانبتهم وعدم التشبه بهم أو الالتقاء معهم فى أى شيء من شؤون الحياة ، وإدخال السرور عليهم بمشاركتهم فى أعيادهم والتبريك لهم حرام لتشجيعهم على باطلهم وانتقاصهم للمسلمين بهذه الميوعة .

وقد ورد الحديث الصحيح : (من تشبه بقوم فهو منهم) .

وقد قال عمر لأبى موسى : لا أكرمهم إذ أهانهم الله ، ولا أعزهم إذ أذلهم الله ، ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله) .

ونص العلماء على كراهة أكل ماذبحوه فى أعيادهم كراهة تحريم أو تنزيه على قولين مشهورين .

وقد ذكر جمهور الأئمة أنه لايحل للمسلمين أن يبيعوا للنصارى شيئاً من مصلحة عيدهم ، لا لحماً ولا دماً ولا ثوباً ، ولا يعارون مايمتطون إليه فى عيدهم ، ولا يعاونون على شيء من دينهم ، لأن ذلك من تعظيم شركهم وعونهم على كفرهم ؛ فكما أن المسلم لا يحل له أن يعينهم على شرب الخمر بعصرها أو نحوها ، فكيف يعينهم على ماهو من شعائر الكفر ؟ وإذا كان لايحل له أن يعينهم فكيف إذا كان هو الفاعل لذلك ؟ فهذا كلام محققى العلماء فى ذلك ، فكيف بمؤاخاة النصارى ونحوهم باسم الوطنية أو القومية ، فمؤاخاتهم أو الدعوة لهما مناقضة لملة إبراهيم من الأساس .

(الحادى والعشرون) لا يجوز للزوجة صيام نفل بدون إذن زوجها ، لأن

واجب حقه فى بدنها أولى من صيام التطوع ، فيجب عليها الإفطار منه إذا أراد .

(وهنا فائدة) وهى أن المتطوع بفعل لايجب عليه إتمامه إلا الحج فقط

(الثانى والعشرون) ورد الترغيب بصوم ست من شوال لأنه يجبر ما حصل من الخلل فى صيام رمضان ، ولأن الحسنة بعشر أمثالها ، فيكون المتابع لرمضان بها كمن صام الدهر . وقد وردت النصوص بذلك ، لكن اختلف العلماء هل تصام متتابعات أو مفرقات ، فالإمام مالك يرى تفريقها محاذراً من أن يبتدع الجهال والمتنطعون عيداً ثانياً بعد اختتامها . وقد صدقت فراسته رحمه الله ، فاتخذوا عيداً سموه عيد الأبرار ، فماذا يكون عيد الفطر ؟.

(الثالث والعشرون) شرع الله صدقة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث ، وهذا مبنى على أن فلاح العبد متوقف على زكاة نفسه وطهارتها بما شرع الله من صلاح الأقوال والأعمال ، وزكاة الفطر من بينها ، فهى إذن مؤهلة للمؤمن لأن ينال الفلاح ، فصدقة الفطر فضلها عظيم ، وقد قال بعض المفسرين إنها المقصودة من قول الله تعالى : (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) . فأناط الفلاح بها وبصلاة العيد ، فهى واجبة على كل عين من أعيان المسلمين صغاراً وكباراً تزكية لنفوسهم جميعاً ، وتوسعه على الفقراء فى العيد ، صيانة لكرامتهم وحفظاً لعزتهم من ذل السؤال أو حصول البؤس بالجوع ، وليكون المجتمع الإسلامى سعيداً مرحوماً .

وقد روى الإمام مالك فى الموطأ والشيخان فى صحيحيهما عن ابن عمر قال : (فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر من رمضان صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير على العبد والحر والذكر والأنثى والصغير والكبير من المسلمين). وروى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى : كنا نخرج زكاة الفطر صاعاً من طعام (بر) أو صاعاً من شعير أو صاعاً من تمر أو صاعاً من أقط

أو صاعاً من زبيب) .

وعند بعض العلماء يجوز الإطعام من غالب قوت البلد . وبعضهم يرى إخراج القيمة . وبعضهم يرى الاقتصار على هذه الأصناف الخمسة التزاماً لنص الحديث . وهو رأى جميل سديد . ولكن من نظر إلى واقع الفقراء وكونهم يبيعون التمر ونحوه بأقل من نصف قيمته ، فيقل انتفاعهم بما شرعه الله لهم ، فإنه يرى إخراج القيمة أحظ للفقراء وأقوم لأداء هذه الشعيرة .

(الرابع والعشرون) قضاء رمضان للمفطر بعذر ينبغى أن لا يتساهل فى تأخيره اغتناماً لفرصة صحته وقوته ، فإن أخره إلى شعبان تحتم عليه الإسراع بالقضاء بقدر ما عليه ، ومن لم يزل عذره حتى وافاه رمضان آخر فالواجب فى حقه الإطعام والله أعلم . فهذه جملة ميسرة من حكم الصيام وأحكامه ضمنتها هذا التفسير والحمد لله .

* * *

فهرست الموضوعات